
روايات مصرية للجيب
رجل المستحيل
ممر الج
114
نبيل فاروق
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧

رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١) .. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ - العاصفة ..

فرك الدكتور (محمد العفيفى) ، أستاذ الهندسة النووية بجامعة (الإسكندرية) ، عينيه فى تهالك ، وتثاءب مرهقًا ، وهو يجلس فى حجرة الاجتماعات الخاصة ، داخل المبنى الرئيسى للمخابرات العامة المصرية ، ثم ألقى نظرة على ساعته ، وسأل رجل المخابرات الجالس إلى جواره :

- قل لى يا رجل : أمن المحتم أن تنعقد كل اجتماعاتكم قبل شروق الشمس ؟!

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتى الرجل ، وهو يجيب :

- أنت تدرك دقة الموقف وصعوبته يا سيدى ، فنحن نسابق الزمن ، لمنع تلك الأفعى من صنع قنابلها الذرية ، وإلا فسيقع العالم كله تحت رحمة شيطانة .

غمغم الدكتور (محمد) :

ـ تقصد تحت سيطرتها المطلقة .

تنهَّد رجل المخابرات ، قائلاً :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا ، لمنع حدوث هذا .

نطقها رجل المخابرات ، وذهنه يستعيد تلك الأحداث القريبة ، التى أدت إلى تلك المغامرة الجديدة ..

لقد بدأ كل شىء بسلسلة من الاختطافات ، قام بها رجال السنيورا الغامضة ، لعدد من خبراء الطاقة الذرية فى العالم .. البروفيسير (ميخائيل استروتيسكى) ، والدكتور (جيسكار دى مال) ، والدكتور (دوران جولهى) ..

وبسرعة ، أدرك رجال المخابرات المصرية ، أن الهدف من كل هذا هو تكوين فريق نووى خاص ، لحساب السنيورا ، وأنها تعدّ العدة لصنع عدد من القنابل الذرية ، للسيطرة على العالم ، وإخضاعه لرغباتها وسطوتها ..

وكان لابد من منعها من بلوغ هذه الغاية المخيفة ..

وبأى ثمن ..

لذا فقد تم إسناد المهمة إلى (أدهم صبرى) على

الفور ، فى نفس اللحظة التى انتهى فيها من مهمة عنيفة فى (طوكيو)(*) ..

ودون إضاعة لحظة واحدة ، انطلق (أدهم) و(جيهان) إلى (أمريكا الجنوبية) ، فى محاولة لمنع السنيورا من الظفر بآخر العلماء ، الذين يحتاج إليهم فريقها النووى ..

خبير الهندسة النووية الألمانى ، البروفيسير (مارك مانهايم) ..

وفى نفس اللحظة ، التى وصل فيها (أدهم) و(جيهان) إلى (ريو دى جانيرو) ، كان رجال السنيورا يختطفون البروفيسير (مانهايم) بالفعل ..

وقاتل الاثنان فى استماتة ؛ لاستعادة البروفيسير ، ومنع السنيورا من الظفر به ..

وكان القتال شرسًا عنيفًا ..

وقاسيًا ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد أفلت أحد رجال السنيورا مع البروفيسير ، وفشل (أدهم) و(جيهان) فى استعادته ..

(*) راجع قصة (الفريق الأسود) .. المغامرة رقم (١١٢) ..

بل ووقعا فى قبضة الشرطة البرازيلية ..

ولم تتوقف الأحداث عند هذه النقطة ..

لقد واصل الاثنان القتال ، ونجحا فى الفرار من الشرطة ، وفى استعادة البروفيسير ..

ولكن هذا لم يكن يعنى أنهما قد ربحا المعركة ..

لقد انطلقت خلفهما كل القوى دفعة واحدة ..

رجال مكافحة الإرهاب فى (ريو دى جانيرو) ..

وفريق من أعتى الرجال ، تحت قيادة رجل المخابرات السوفيتى السابق (يورى أندروفيتش) ، الذى يحلم بتحطيم (أدهم صبرى) وتدميره ..

وعصابات السنيورا ، التى يقودها رجلها الأوَّل (لاماس) ..

وحتى قوى الطبيعة ..

ـ « صباح الخير أيها السادة » ..

قطع وصول مدير المخابرات أفكار الجميع وذكرياتهم ، فنهضوا لاستقباله فى احترام ، وأسرع هو إلى مقعده ، على رأس مائدة الاجتماعات ، وقال فى اهتمام بالغ :

ـ أخشى أيها السادة أن الأخبار ليست مطمئنة هذه المرة .

تطلَّعت إليه العيون كلها فى قلق وتساؤل ، فتابع بسرعة :

ـ آخر برقية وصلتنا من (ريو) ، تقول : إن (أدهم) و (جيهان) قد استعادا البروفيسير (ماتهايم) بالفعل ..

هتف الدكتور (محمد العفيفى) فى لهفة :

ـ عظيم .. خبر ممتاز .

رمقه مدير المخابرات بنظرة جانبية ، ثم واصل حديثه ، وكأنه لم يسمع التعليق :

ـ ولكن (أدهم) حاول الخروج من المدينة ، على الرغم من استحكامات الأمن حولها ، عن طريق ممر طبيعى ، يعبر وسط الجبال ، وينتهى بغابات استوائية ، تقود إلى الطريق الخلفى للعاصمة (برازيليا) ، ولكن لسوء حظه ، هبَّت عاصفة عاتية على الساحل الشرقى للمنطقة ، وصار ذلك الممر أشبه بفخ طبيعى ، يستحيل تجاوزه دون خسائر جسيمة .

بدا القلق على وجوه الجميع ، وتمتم الدكتور (محمد العفيفى) :

ـ يا إلهى !.. لم أكن أتصوَّر أن ..

لم يستطع إتمام عبارته ، فأطبق شفتيه فى توتر ، شاركه إياه أحد رجال المخابرات ، وهو يقول :

ـ سيِّدى .. (ن ـ ١) واجه ظروفًا أكثر صعوبة فى الماضى :

هزَّ المدير رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ فارق كبير بين أن يواجه (أدهم) عصابات منظمة ، أو أجهزة مخابارت معادية ، أو أن يواجه الطبيعة ، بكل قوتها وقسوتها وجبروتها .

تبادل الجميع نظرة شديدة القلق والتوتر ، قبل أن يسأل أحدهم :

ـ هل تعتقد يا سيِّدى أن سيادة العميد (أدهم) يواجه الخطر الآن ؟!

أجابه المدير فى أسف :

ـ بالتأكيد .

ثم شبك أصابع كفيه أمام وجهه ، قبل أن يتابع فى حزم :

ـ الواقع أن الغرض الرئيسى لهذا الاجتماع ، كان بحث الخيارات المطروحة أمام السنيورا ، بعد أن استعاد (أدهم) و (جيهان) البروفيسير (ماتهايم) ، واحتمالات لجوئها إلى اختطاف خبير هندسة نووية آخر ، أما الآن ، وبعد تلك الأنباء الجديدة ، ونشرات متابعة الطقس ، التى تشير إلى تزايد قوة العاصفة وعنفها ، فأعتقد أننا نحتاج إلى إعادة دراسة الموقف كله .

قالها ، دون أن يدرى أن (أدهم) و (جيهان) ، يواجهان فى هذه اللحظة بالذات ، ثورة الطبيعة بكل قوتها ، داخل (كوميدور بينيجرو) ..

ذلك الممر الجبلى ، الذى بدا لهم أشبه بممر إلى قلب الخطر ..

أو إلى قلب الجحيم (*) ..

* * *

(★) للاطلاع على التفاصيل الكاملة ، راجع الجزء الأول (رياح الخطر) .. المغامرة رقم (١١٣)

انحنت أشجار النخيل الطويلة ، على شاطئ (ريو دى جانيرو) ، أمام الرياح العاصفة ، التى تتزايد قوتها على نحو غير معهود ، وخلت شوارع المدينة تمامًا من المارة ، وتحطمت نصف مصابيحها ، من شدة الرياح ، فانتشرت فيها ظلمة مخيفة ، زادت من رهبة الموقف وحدته ، ولم تسلم السيارات فى الطرقات من الرياح ، التى بلغ من عنفها أن انتزعت بعضها من مكانه ، ودفعته حتى منتصف الطريق ، أو الجانب الآخر منه ، فى بعض الأحيان ..

أما سكان المدينة ، فقد قبعوا فى بيوتهم ، وأغلقوا النوافذ والأبواب ، وانكمشوا فى حجراتهم ، يرتجفون رهبة وذعرًا وخوفًا ، خشية أن تتضاعف قوة الرياح ، فتهدم بيوتهم على رءوسهم ..

ووسط كل هذا ، وقف رجل المخابرات السابق (يورى أندروفيتش) خلف زجاج ذلك الفندق الأنيق ، المطلّ على المحيط ، يراقب الموقف فى برود مستفز ، وعيناه تتألقان فى جذل عجيب ، وكأنما يتابع مسرحية هزلية ، وبين أصابعه كأس من (الفودكا) ،

يرتشف منها رشفة وراء أخرى فى بطء وتلذّذ ، مما جعل (كوادروس) يسأله فى شىء من الحيرة :

- قل لى أيها القائد : هل تروق لك العواصف فى المعتاد ؟

رمقه (أندروفيتش) بنظرة جانبية ساخرة ، قبل أن يغمغم فى اقتضاب بارد :

- ربما .

لم يرق الجواب للرجل ، أو يفهم حتى ما يعنيه ، لذا فقد اكتفى بهزّ كتفيه ، وقال :

- أنا لا أميل إليها قط .

ثم هزّ كتفيه الضخمتين مرة أخرى بلا مبرِّر ، وتابع :

- هل تعلم أيها القائد ؟ عندما كنا عند ذلك الممر ، خشيت أن تطالبنا بمطاردة ذلك الرجل عبره ، أو انتظاره خارجه ، مع هذه الرياح المخيفة .

صمت (أندروفيتش) طويلًا ، وهو يراقب الرياح وتأثيراتها ، ثم لم يلبث أن قال بأسلوبه البارد كالثلج :

- الأحمق وحده من يتصدّى لمثل هذه الرياح الرهيبة .

وافقه (كوادروس) بإيماءة من رأسه ، وقال فى حماس :

- بالتأكيد أيها القائد .. بالتأكيد .

ثم خُيِّل إليه أنه قد فهم ما يرمى إليه الروسى ، فأطلق ضحكة عالية ، وتابع ملوِّحًا بذراعيه فى حركة سخيفة :

- وهذا يعنى أن صاحبنا هو أكثر أهل الأرض حماقة ؛ لأنه الآن فى قلب الممر ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، فوجئ بالروسى يلتفت إليه فى حركة حادة غاضبة صارمة ، ويرمقه بنظرة نارية ، وهو يقول :

- إياك أن تصف (أدهم صبرى) بالحماقة :

تراجع (كوادروس) فى دهشة بالغة ، وغمغم :

- عجبًا ! أليس خصمنا أيها القائد ؟!

قال الروسى فى صرامة مخيفة :

- الحماقة الحقيقية هى أن تتهم شخصًا بالحماقة ، لمجرَّد أنه خصم لك .. صحيح أن (أدهم صبرى) خصمنا ، ولكن أحدًا فى الكون كله ، لا يمكن أن يتهمه بالحماقة أو الغفلة .. إنك لا تعرف من هو

(أدهم صبرى) .. إنه واحد من أخطر رجال المخابرات فى العالم .. بل هو أخطرهم على الإطلاق :

اتسعت عينا (كوادروس) فى دهشة لا محدودة ، وهو يحدِّق فى وجه (أندروفيتش) ، ثم لم يلبث أن ابتسم فى توتُّر وارتباك ، وهو يتمتم حائرًا :

- سنيور (أندروفيتش) .. إنك تتحدَّث عنه كما لو أنك .. أعنى أن أسلوبك يوحى بـ.. احم .. الواقع أن...

قاطعه الروسى فى حسم :

- إننى شديد الإعجاب به .. أليس كذلك ؟!

ارتبك (كوادروس) أكثر وأكثر ، وهو يتمتم :

- ليس هذا ما قصدته بالضبط ، وإنما .. احم .. أعنى أن ...

عاد الروسى يقاطعه ، وهو يرتشف رشفة من كأسه ، قائلاً :

- كل رجل مخابرات فى العالم شديد الإعجاب بـ (أدهم صبرى) .. إنه المثل الأعلى للجميع .. الأسطورة ، التى لم نصدِّق وجودها فى البداية ، ثم انبهرنا كلنا بها فيما بعد .. المثل الأعلى لكل رجل

مخابرات .. كل جهاز مخابرات فى العالم تمنى لو أنه أحد أفراده .. ولأن هذا مجرَّد حلم زائف ، ولأن الرجل لا ولن يدين بالولاء إلا لوطنه فقط ، كان من المحتم أن نسعى جميعًا للقضاء عليه وتدميره ، على الرغم من إعجابنا به ، وانبهارنا بقدراته المدهشة ، باعتباره رمزًا لتفوّق جهاز مخابرات عدو .

وارتشف رشفة من كأسه ، قبل أن يلتفت إلى (كوادروس) ، مضيفًا فى صرامة :

- هل فهمت ؟

كان الجواب واضحًا فى ارتباك (كوادروس) ، وحيرته الواضحة ، المطلّة من عينيه ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، أجاب فى حماس مصطنع :

- بالطبع أيها القائد .. بالطبع .

ارتسمت ابتسامة ساخرة سريعة على شفتى (أندروفيتش) ، قبل أن يعود للتطلّع عبر النافذة ، ويقول :

- أجر اتصالاتك من الآن ؛ لتجهيز هليوكوبتر كبيرة ، يمكن أن تسعنا جميعًا .

ردَّد (كوادروس) :

- هليوكوبتر كبيرة ؟!

أجابه الروسى فى سرعة وحزم :

- نعم يا رجل .. هليوكوبتر كبيرة ، تكفى لحملنا جميعًا ، إلى ما خلف خطوط العدو .

وابتسم ابتسامة باهتة ، وكأنما راقت له عبارته ، إلا أن هذه الابتسامة لم تحتمل البقاء على شفتيه الباردتين طويلاً ، فانهارت فوقهما ، وهو يتابع مستعيدًا صرامته :

- لقد ارتكب (أدهم صبرى) أكبر خطأ فى حياته العملية كلها ، عندما اقتحم ممر الخطر ، دون أن يتابع النشرة الجوية جيدًا .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

- وأنا أنوى استغلال ذلك الخطأ ، بأقصى ما يمكننى من الإفادة والنجاح ، وإذا ما نجح هو فى الخروج من (كوهيدور بيليجرو) حيًا ، فسوف يجدنا فى انتظاره .

وارتشف الرشفة الأخيرة من كأسه ، قبل أن يقول :

- وسأبذل قصارى جهدى ؛ ليكون هو آخر ما يراه ، فى حياته كلها .

نطق عبارته الأخيرة هذه بلهجته الباردة كالثلج ،

على الرغم من أن عينيه كانتا تتألقان بضحكة واسعة كبيرة ..

ضحكة تحمل كل الحسم ..

وكل الثقة ..

★ ★ ★

عندما انهار زجاج السيارة الأمامى ، فى قلب ممر (بيليجرو) ، بتأثير مزدوج من إصابته المباشرة ، مع انقلاب السيارة ، وقوة الرياح المخيفة ، التى بلغت سرعتها ألف كيلومتر فى الساعة ، كان (أدهم صبرى) فى حالة سيئة للغاية ...

جراح صدره وفخذه تنزف بشدة ، والرؤية أمامه مشوشة مهتزة ، من فرط التعب والإجهاد ، كما أن غيبوبة عنيدة تهاجمه فى إلحاح ، وتكاد تفقده الوعى ، و..

ولكن هذا الرجل عجيب بحق ..

بل هو مدهش إلى حد الإبهار ..

فعلى الرغم من كل هذا ، ومن صعوبة الموقف ودقته ، والرمال التى ارتطمت بجسده ، بتلك السرعة الخرافية المخيفة ، دبّ فى جسده نشاط مباغت ،

وتحرّك جسده كله بسرعة مذهلة ، وعلى نحو لم يشهده ممر الخطر ، طوال عمره الطويل ، الذى يتجاوز الألف عام ببضعة أشهر ..

لقد دار حول نفسه ؛ ليواجه الرمال العنيفة وشظايا الزجاج المتطاير بظهره ، وليحمى (جيهان) والبروفيسير (ماتهايم) بجسده ، وعقله يدرس كل ما حوله بسرعة البرق ، ويبحث عن حل للموقف العسير ، وأطرافه تتحرّك بسرعة مذهلة ، لتضع ذلك الحلّ موضع التنفيذ ..

وبكل ذعرها وعصبيتها ، هتفت (جيهان) ، عندما دفع رأسها إلى أسفل :

ـ ماذا ستفعل ؟!

لم يجب سؤالها ، أو يبدى أدنى اهتمام بإجابته ، وهو يميل بجسده عبر المقعد الخلفى ، ليجذب مسنده الرأسى فى قوة ، والبروفيسير (ماتهايم) أسفله يصرخ :

ـ لا .. لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت ..

كان المسند الرأسى للمقعد الخلفى صالحًا للانطواء ، شأن كل السيارات الكبيرة من هذا الطراز ، لإضافة

مساحة زائدة للحقيبة الخلفية ؛ لذا فقد طواه (أدهم) ، وهو يصيح فى صرامة ، والرمال الحادة تضرب ظهره ، بتلك السرعة الخرافية ، وتمزق ثيابه وجلده بلا رحمة :

- انتقلا إلى حقيبة السيارة .

فهمت (جيهان) على الفور ما يقصده ، فجذبت البروفيسير المنكمش فى أرضية السيارة ، ودفعته داخل الحقيبة الخلفية لها ، وهى تهتف فى عصبية :

- هيا أيها العالم الفذ .. فلنؤجّل الارتجاف إلى وقت آخر .

صرخ البروفيسير فى ألم ، وهى تدفعه داخل الحقيبة فى قسوة ، ولكنها وثبت خلفه ، وهتفت :

- هيا يا (أدهم) .. أسرع .

دفع (أدهم) جسده ، بكل ما تبقى له من قوة ، ليحشر نفسه معهما ، داخل حقيبة السيارة الكبيرة ، ثم حمى وجهه بذراعه اليسرى ، وهو يجذب المسند الرأسى للمقعد الخلفى ، معيدًا إياه إلى موضعه الأوّل ..

وأخيرًا ، أصبح الثلاثة داخل مكان مغلق ، لا تصل إليه الرياح المخيفة ، أو الرمال الحادة الرفيعة ، التى



فهمت (جيهان) على الفور ما يقصده ، فجذبت البروفيسير فى أرضية السيارة ، ودفعته داخل الحقيبة لها ..

تخترق الأجساد كألف ألف رصاصة دقيقة ..

وفى انبهار ، هتف البروفيسير :

- رباه !.. لقد أنقذتنا يا رجل .. أنقذت حياتنا فى خمس ثوان فحسب !! أى رجل أنت ؟! يا إلهى !.. لولا أن رأيت ما حدث بنفسى ، لما صدّقت لمحة واحدة منه ، و ...

قاطعته شهقة قوية ملتاعة من (جيهان) ، وهى تميل بجسده فى حركة حادة ؛ لتحتضن رأس (أدهم) ، هاتفة :

- رباه ! (أدهم) .. أجب يا (أدهم) .. أجب .. أرجوك .

وكان من العسير أن تتلقّى منه جوابًا ، فى تلك اللحظة ..

لقد انهار جسده المثخن بمئات الجراح الصغيرة الدقيقة ..

انهار تمامًا ...

* * *

على عكس العالمين (جولهى) و (دى مال) ، استغرق (ميخائيل استروتيسكى) فى نوم عميق ،

منذ أوى إلى فراشه ، فى أوّل الليل ..

كان مجهدًا بحق ؛ لأنه لم يذق طعم النوم منذ يومين كاملين ، عانى فيهما من التعب والانفعال ، كما لم يعان فى حياته كلها من قبل ..

ولكن حتى النوم لم يمنحه الهدوء الذى ينشده ..

لقد انطلق عقله يستعيد ذكريات عديدة ، ويسترجع العشرات والعشرات من المعلومات والمعادلات ، والنظريات ، وحتى أسماء الأصدقاء القدامى ، وزملاء الدراسة ، والعمل ، والعلم ، و ...

وفجأة ، توقّفت أحلامه كلها عند رجل واحد ..

رجل ظهر فى حلمه كمقاتل خرافى ، يبرز من قلب مفاعل نووى كبير ، حاملاً سلاحًا ضخمًا ، تنطلق منه زوابع وأعاصير وعواصف ..

ثم فجأة ، تجرّد الرجل من سلاحه ، وعاد يسقط فى قلب المفاعل النووى ، وهو يقاتل بذراعيه وساقيه فى الهواء ، وكأنما يحاول التشبُّث بأى شىء ، وصاح وهو يشير بيده :

- لا تتركنى يا (استروتيسكى) .. لا تتركنى خلفك .

انتفض جسد (استروتيسكى) ، وهتف :

ـ وماذا يمكننى أن أفعل ؟! ما الذى ...

وتوقفت العبارة فى حلقه فى أثناء الحلم ..

بل توقَّف الحلم كله دفعة واحدة ..

واستيقظ البروفيسير (استروتيسكى) ..

استيقظ بحركة حادة ، وهبَّ جالسًا على طرف فراشه ، وهو يهتف :

ـ يا للشيطان ! كيف لم أذكره ؟

وبسرعة مدهشة ، انقضَّ على ثيابه ، يرتديها على عجل ، ودقَّ باب حجرته ، هاتفًا فى انفعال :

ـ السنيورا .. أريد مقابلة السنيورا .. أريد مقابلتها على الفور .. أخبروها أن ما لدى يهمها .. يهمها بشدة .

ولقد انعقد حاجبا السنيورا الجميلين بشدة ، عندما بلغتها رسالته ، وأشارت إلى حاملها بيدها ، قائلة فى حزم :

ـ فليكن .. أحضروه لمقابلتى على الفور .

انصرف رجلها لتنفيذ الأمر ، فى حين نهضت هى تُشعل سيجارتها فى توتر ، وهى تغمغم لنفسها :

ـ تُرى ماذا يريد هذا الرجل ؟! من المؤكَّد أن عالمًا مثله لن يطلب مقابلتى بهذه اللهفة ، فى هذه الساعة المتأخِّرة ، إلا لأن لديه ما يستحق هذا .. ومن يدرى ؟! ربما كان لديه ما يقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ! من يدرى ؟!

ظلَّت على توترها وعصبيتها ، حتى دلف البروفيسير (استروتيسكى) إلى حجرتها ، وقال متوترًا :

ـ مساء الخير يا سنيورا .. معذرة لأنـ .....

قاطعته فى عصبية :

ـ هات مالديك يا رجل .. لست أحب المقدِّمات الطويلة .

ازدرد (استروتيسكى) لعابه فى صعوبة ، وغمغم :

ـ بالتأكيد يا سنيورا .. بالتأكيد .

ثم استعاد حماسه وانفعاله بغتة ، وهو يتابع :

ـ هل تذكرين حديثنا السابق ، حول إيجاد بديل للبروفيسير (مانهايم) ؟!

جذبت هذه المقدِّمة انتباهها بشدة ، فقالت بسرعة :

- بالتأكيد .

تضاعف حماسه ، حتى إنه راح يلوّح بذراعيه معًا ، قائلاً :

- الليلة ، ومنذ دقائق معدودة ، تذكّرت أمرًا مهمًا ، لست أدرى كيف غاب عن ذهنى .

سألته فى عصبية ولهفة :

- وما هو ؟!

مال نحوها ، مجيبًا فى انفعال جارف :

- البروفيسير (بولانسكى) .

تراجعت ، قائلة فى توتر :

- من ؟!

أجاب فى حماس :

- البروفيسير البولندى (ديوك بولانسكى) .. استاذ الهندسة النووية السابق ، فى جامعة (موسكو) .. إنه أحد عباقرة الهندسة النووية ، وواحد من أندر خبراء بناء وتشغيل المفاعلات الذرية التقليدية .

تألّقت عيناها فى لهفة ، وهى تهتف ، وكأنها تنقضّ عليه :

- ولكن المعلومات الرسمية تؤكّد أن البروفيسير

(بولانسكى) هذا قد مات بسكتة قلبية فى الـ ....

قاطعها فى لهفة :

- خدعة .. مجرّد خدعة .

حدّقت فى وجهه بدهشة بالغة ، وهى تقول فى انفعال :

- أتعنى أنه .. أنه على قيد الحياة ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وعاد يميل نحوها ، قائلاً :

- الرجل معتقل فى (سيبيريا) ، منذ أكثر من ثلاثة أعوام ؛ لأنه هاجم وبعنف ، عملية حل الاتحاد السوفيتى السابق ، وتفتيته عمليًا وعسكريًا ، واتهم المسئولين عن هذا بالخيانة ، وبأنهم عملاء للنظام الأمريكى ..

عاد عيناها تتألقان بشدة ، وهى تتراجع فى مقعدها ، قائلة :

- يا للشيطان ! إذن فاستعادتنا للبروفيسير (بولانسكى) من (سيبيريا) ، تعنى أننا نستطيع البدء فى إنتاج قنابلنا الذرية ، دون الحاجة إلى البروفيسير (مانهايم) ؟

أشار (استروتيسكى) بقبضته ، هاتفًا فى حماس :

- بالضبط .

ثم استدرك فى شىء من القلق :

- ولكن استعادة معتقل من (سيبيريا) ليس بالأمر السهل .

انطلقت من أعماقها ضحكة عالية ، مفعمة بالانفعال ، قبل أن تقول :

- اطمئن يا عزيزى (استروتيسكى) .. إن منظمتنا أقوى مما تتصورَّ .. أقوى بكثير .

وعادت تطلق ضحكاتها المنفعلة ، التى حملت هذه المرة الكثير من الارتياح ، مع لمحة من الظفر والزهو ..

لقد قلب (استروتيسكى) الأمور بالفعل ..

قلبها رأسًا على عقب ..

وبمنتهى الخطورة .

* * *

٢ - انهيار ..

صمت المفتش (باندرياس) طويلاً فى تلك الليلة ، وهو يجلس أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به ، فى مكتبه الخاص ، فى إدارة الشرطة ، والتهب عقله بعشرات الأفكار والتساؤلات ، على نحو انغمست فيه مشاعره تمامًا ، فلم تعد تبالى بالعاصفة الهوجاء ، التى تضرب مدينته بعنف وقسوة ، لم يعهدهما الأهالى المذعورون ، فى حياتهم كلها ..

وراح قلبه يخفق فى قوة أكثر وأكثر ، مع كل خطوة يقطعها ..

لقد كان على حق فى مخاوفه الأولى ..

الأمر ليس أبدًا بذلك الوضوح ، الذى يبدو عليه ..

كل الشهود أجمعوا على أن مرتكبى الحادث رجلان غليظان ، لقى أحدهما مصرعه فى مطار (باخوس) ، واختفى الثانى مع السائح الألمانى ..

أما ذلك الوسيم وزميلته ، فمن المؤكَّد أن لهما هدفًا آخر ، لا يرتبط بعملية اختطاف السائح ،

وإنما يعترض طريقها على نحو ما ..
ربما كمحاولة إنقاذ ..
أو قتل ..
ولكن لماذا ؟!
لماذا ؟!
كل المعلومات تؤكد أن ذلك الذى تم اختطافه ، والذى اندلعت من أجله هذه الحرب الشعواء ، ليس أحد مليونيرات البترول ، أو كبار رجال المال والأعمال ، أو حتى تجار المخدرات ..
إنه أحد علماء الطاقة الذرية فحسب ..
وهؤلاء يحصون بالآلاف فى هذا العصر ..
وربما أكثر ..
الكل يدرس الطاقة الذرية فى هذا الزمن ، على نحو أو آخر ..
فلماذا الصراع على رجل واحد ؟!
لماذا ؟!
توقفت شبكة معلوماته عند هذا الحد ، ولم يستطع التوغل فيها أكثر وأكثر ، و ...
« لدينا ثلاثة بلاغات جديدة ، بشأن انهيار المنازل ، فى الحى القديم .. »

انتزعته عبارة زميله من أعماق أفكاره ، فانتفض جسده انتفاضة مكتومة ، وهو يلتفت إليه ، قائلاً فى شىء من العصبية :
ـ ثلاثة ؟!
لم ينتبه زميله إلى توتره ، فجذب مقعداً ، وألقى جسده المرهق فوقه ، وهو يومئ برأسه إيجاباً ، ويتنهد ، قائلاً :
ـ نعم .. ثلاثة .. أنت تعرف تلك المنازل القديمة ، ثم إننا لم نشهد عاصفة كهذه فى حياتنا قط ، و ...
انتبه فجأة إلى شرود ذهن (باندرياس) ، فبتر عبارته ، وتطلع إليه لحظة فى حيرة ، قبل أن يميل نحوه ، ويسأله فى قلق :
ـ ماذا بك ؟! لست أظنها العاصفة .
تطلع إليه (باندرياس) لحظة بنفس الشرود ، ثم لم يلبث أن لوح بكفه ، قائلاً :
ـ قل لى يا رجل : هل سبق لك أن رأيت ذلك الوسيم ؟
حدق زميله فى وجهه بدهشة ، مردداً :
ـ الوسيم ؟! أى وسيم ؟!

بدا الاهتمام الشديد على وجه المفتش ، وهو يلوّح بسبّابته ، قائلاً فى اهتمام بالغ :

ـ ذلك الرجل ، الذى قلب الدنيا كلها رأسًا على عقب مع زميلته ، والذى خرج وحده ، فى قلب العاصفة ؛ ليتحدّى (كوهيدور بيليجرو) .

ارتفع حاجبا زميله بشدة ، وهو يقول :

ـ آه .. آه .. ماذا تقصد بسؤالك عما إذا كنت قد رأيته من قبل ؟!

مال (باندرياس) نحوه ، وقال فى انفعال :

ـ أنا واثق من أننى قد رأيته من قبل فى مكان ما .. نشرة جنائية .. جريدة .. برنامج تليفزيونى ، أو ...

تألّقت عيناه بغتة ، وشمله انفعال جارف مفاجئ ، وهو يقفز من مقعده ، هاتفًا :

ـ يا إلهى !.. لقد تذكّرت ..

واندفع نحو الكمبيوتر فى حماس شديد ، متابعًا :

ـ هل تذكر تلك المعارك العنيفة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، التى هزّت المنطقة كلها ؟!

سأله زميله فى لهفة :

ـ أية معارك ؟!

أجابه بنفس الحماس ، وأصابعه تجرى على أزرار الكمبيوتر فى سرعة :

ـ تلك المعارك عند المستشفى المركزى فى (نيويورك)(*) .. هل تذكرها ؟! لقد ادعى الأمريكيون أن بطلها رجل مخابرات أمريكى ، يُدعى (تيم بارتون) ، ولكن هيئة (تيم بارتون) هذه بدت لى حينذاك مألوفة ، وأذكر أننى بحثت عن أية معلومات حوله ، فتوصّلت عندئذ إلى حقيقة مدهشة .

وازدادت عيناه تألّقًا ، وهو يُنهى ضرباته على الأزرار ، متابعًا :

ـ إن اسمه الحقيقى ليس (تيم بارتون) .. بل وإنه ليس أمريكيًا على الإطلاق ..

ومع ضربته الأخيرة ، ظهرت على شاشة الكمبيوتر صورة واضحة ، راحت تتكوّن فى سرعة ، مع أسطر لا نهائية من المعلومات ..

وفى ذهول كامل ، راح زميل (باندرياس) يتابع المعلومات الغزيرة على شاشة الكمبيوتر ،

(*) راجع قصة (الأفعى) .. المغامرة رقم (١٠٦) .

و (باندرياس) نفسه يتمتم مبهورًا :

- هل رأيت ؟!

كان هذا آخر ما تبادلاه من حديث ، خلال الدقائق العشر التالية ، التى راح الكمبيوتر يفرغ خلالها كل ما لديه عن (أدهم صبرى) ، وهما يتابعانه بانبهار تجاوز كل الحدود ..

انبهار أنساهما العاصفة العاتية فى الخارج ..

هذا لأنه فى أعماقهما كان هناك إعصار(*) أكثر قوة وعنفًا ، يضرب مشاعرهما بلا رحمة ..

إعصار يحمل اسم (أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

* * *

تزايدت قوة الرياح ، حتى بلغت حدها الأقصى ، فى ذلك الممر الرهيب ، عند حدود (ريودى جانيرو) الجبلية ، وراحت السيارة المقلوبة ترتجّ فى عنف ،

(*) الإعصار : مناطق من الضغط الجوى المنخفض ، يدور الهواء من حولها حلزونيًا ، ضد عقارب الساعة فى نصف الكرة الشمالى ، ومع عقارب الساعة فى نصف الكرة الجنوبى ، ومن أشهر وأعنف أنواعه إعصار (تورنادو) ، وإعصار (هاريكين) .

وكأن الرياح تسعى لانتزاعها من مكانها ، ودفعها إلى الخلف فى قوة ؛ لتتحطّم على الجدار الصخرى الهائل ، فى حين انطلق مع سرعتها صوت مخيف رهيب ، أشبه بفحيح ألف أفعى سامة قائلة :

وفى ذعر لا حدود له ، انكمش البروفيسير (مانهايم) داخل حقيبة السيارة المغلقة ، وهو يبكى قائلاً :

- لن ننجو من هذا أبدًا .. السيارة لن تحتمل طويلاً .. سينتهى كل شىء مع أوّل انهيار جديد .. سنلقى مصرعنا جميعًا ، دون أن يشعر بنا أحد .. ستسحقنا الـ ...

قاطعته (جيهان) فى حدة :

- كفى يا رجل .. لم أعد أحتمل نحيبك المستمر هذا .. توقّف بالله عليك ، قبل أن تصيبنى بانهيار عصبى .

أطلق البروفيسير ضحكة هستيرية ساخرة ، قبل أن يهتف :

- انهيار عصبى !! ياللسخافة ! هذا أفضل ما يمكن أن يصاب به المرء ، فى ظروف كهذه أيتها

المتحذلقة .. إننا نواجه ألف طريقة وطريقة للموت .. ألا تشعرين أنك تبذلين جهدًا إضافيًا ؛ لتتنفسى على نحو طبيعى ؟! ألم يخطر ببالك أن تلك الرياح العنيفة ، بكل ما تحمله من رمال وحصى وغبار ، ستجعل التنفس أكثر صعوبة ، فى كل دقيقة تمضى ، حتى إننا قد نختنق داخل هذه الحقيبة الضيقة ، التى تتصورين أننا نحتمى بها .. هذا لو استبعدنا احتمال انهيار جسم السيارة ، الذى امتلأ بالفعل بالثقوب والشقوق ، أو حدوث انهيار صخرى آخر ، يسحقنا تحته سحقًا ، أو..

قاطعته فى حدة :

- كفى .. كفى بالله عليك .

عاد يطلق ضحكاته الهستيرية ، متابعًا :

- أتخشين مجرد الاستماع ؟! ماذا عن الفعل إذن ؟! ماذا عن قوتك فى مواجهة تلك المواقف ، لو تعرضنا إليها بالفعل ، وماذا لو ...

انتزعت المسدس من (أدهم) فى حركة سريعة ، ودفعت فوهته الباردة فى عنق البروفيسير ، وهى تقاطعه ، قائلة فى صرامة :

- قلت كفى ؟!

اتسعت عينا البروفيسير فى ارتياع ، وهو يقول :

- هل .. هل قررت التخلص منى ؟!

أجابته فى حدة :

- لو أردنا لفعلنا منذ البداية يا رجل .. ألم يهدك عقلك العبقرى إلى الحقيقة قط ؟! ألم تدرك أبدًا أن كل ما نسعى إليه ، وما تعرضنا له من مخاطر ، كان لإنقاذك فحسب ؟!

اتسعت عينا الرجل فى ذعر ، وهو يسأل :

- إنقاذى من ماذا ؟!

صاحت به فى غضب :

- من أولئك الأوغاد ، الذين يـ ...

قبل أن تتم عبارتها ، ارتج المكان كله بدوى هائل .

دوى اتسعت له عينا البروفيسير (مانهايم) ، فى رعب بلا حدود ، وغابت معه الدماء عن وجهه تمامًا ، وهو ينكمش ، مغمغمًا بصوت يرتجف كريشة فى مهب الريح :

- الانهيار الصخرى .

اتسعت عينا (جيهان) فى رعب هائل ، وشهقت :

- رباه ! (أدهم) .. الانهيار يا (أدهم) ..

وحدَّقت مذعورة فى وجه (أدهم) الفاقد الوعى ، ودوى الصخور الضخمة المتساقطة يرتفع ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

* * *

« لم أر فى حياتى كلها عاصفة بهذا العنف .. »

غمغم (كوادروس) بالعبارة ، فى صوت أشبه بالزمجرة ، وهو يتطلَّع ـ عبر النافذة ـ إلى أشجار النخيل الطويلة ، التى انحنت حتى كادت قممها تلامس الأرض ، مع قوة العاصفة ، ثم تنهَّد فى توتر، قبل أن يلتفت إلى (أندروفيتش) ، متابعًا :

ـ تبدو وكأنها لن تنتهى أبدًا .

مطَّ (أندروفيتش) شفتيه ، وتمتم فى برود كالثلج :

ـ لكل شىء نهاية ؟!

هزَّ (كوادروس) كتفيه ، وقال :

ـ بالتأكيد .

ثم ألقى جسده فوق الأريكة الواسعة ، مستطردًا :

ـ حتى مهمتنا هذه ستنتهى ، مع نهاية العاصفة .

مطَّ (أندروفيتش) شفتيه ثانية ، ورمقه بنظرة جانبية صارمة ، قبل أن يقول :

ـ بل ستبدأ أيها الغبى .

وصبَّ لنفسه قليلاً من الفودكا ، متابعًا :

ـ وبالمناسبة ! ماذا فعلت بشأن الهليوكوبتر ؟!

أشار بيده ، قائلاً :

ـ سيتمّ تجهيزها ، فور انتهاء العاصفة ، وســ ...

قاطعه الروسى فى صرامة :

ـ خطأ .

بدت الدهشة على وجه (كوادروس) ، وهو يعتدل مغمغمًا :

ـ خطأ ؟!

أجابه الروسى فى صرامة أكثر :

ـ الهليوكوبتر لابد أن تكون مستعدة للإقلاع ، فور انخفاض حدة العاصفة ..

تضاعفت دهشة (كوادروس) ، وهو يقول معترضًا :

ـ ولكن أيها القائد ..

واصل (أندروفيتش) حديث ، وكأنه لم يسمعه .

ـ فلو ظلّ (أدهم صبرى) على قيد الحياة ، بعد انتهاء العاصفة ، فمن المحتم أن يجدنا أمامه ، قبل حتى أن يسترد أنفاسه .

التقى حاجبا (كوادروس) ، وهو يغمغم :

ـ ولكن من الانتحارى ، الذى يمكن أن يغادر منزله ، فى هذا الجحيم ؟

أجابه الروسى :

ـ ادفع أى مبلغ يطلبه أصحاب الهليوكوبتر ، بالإضافة إلى ثمن المعدّات مضاعفًا .

عادت الدهشة إلى وجه (كوادروس) ، وهو يقول :

ـ أية معدات ؟!

مال (أندروفيتش) إلى الأمام ، مجيبًا فى لهجة جعلت دماء (كوادروس) تتحوّل داخل عروقه إلى جليد :

ـ المدافع الآلية .

اتسعت عينا الرجل ، فتراجع الروسى فى هدوء ، مكملاً :

ـ المعدّات التى ستنسف أخطر رجل مخابرات فى العالم .

قالها ، وأسبل جفنيه فى هدوء عجيب ..
هدوء أشبه بذلك الذى يسبق العواصف ..
أعنف العواصف ..

* * *

« رباه !.. (أدهم) .. الانهيار يا (أدهم) ..»

هتفت (جيهان) بالعبارة فى ذعر ، وهى تحدّق فى وجه (ادهم) الفاقد الوعى ، ودوىّ الصخور الضخمة المتساقطة يرتفع ، ويرتفع .

واخترق الهتاف أذن (ادهم) وانطلق منها إلى عقله بسرعة مدهشة ، وعبر خلايا مخه الرمادية ، و..

وأيقظه ..

لا أحد يدرى كيف حدث هذا ..

ولا حتى القاعدة العلمية ، التى يستند إليها حدوثه .

لقد كان عقل رجل المستحيل غارقًا فى غيبوبة عميقة ، وعلى الرغم من هذا فقد وجدت العبارة مكانًا لتستفز منه نشاطه كله .

ربما لأن المخ ـ أى مخ ـ لا ينام كله قط ..

جـزء منه فحسب يستغرق فى النوم ، أو حتى فى

الغيبوبة ، مهما بلغ عمقها ، فى حين يظلّ الجزء الأعظم منه متأهبًا متيقظًا ، على الأقل لتشغيل أجهزة الجسم الحيوية المختلفة ، التى يؤدى توقفها لدقائق معدودة إلى موت لا رجعة منه ..

المهم أن عقل (أدهم) ، وبدون الدخول فى تفاصيل معقدة ، قد استيقظ بغتة مع هتاف (جيهان) ..

واستوعب العبارة كلها ..

وسمع دوىّ الصخور المنهارة ، فى نفس اللحظة التى ارتطمت فيها بأرضية الممر ، الذى ارتج فى عنف رهيب ، وبصوت هائل ، ضاعت معه صرخات (جيهان) ، والبروفيسير (مانهايم) ..

ومع صرخاتهما ، ودون سابق إنذار ، هبَّ (أدهم) من غيبوبته ، ودفع (جيهان) جانبًا ، وهو يهتف :

ـ احترسى ..

هو نفسه لم يدر لماذا دفعها إلى هذا الاتجاه بالذات !!..

أو حتى لماذا دفعها من الأساس !!

ولكن المدهش أن تلك الدفعة جاءت فى موعدها بالضبط ، وإلى الاتجاه المناسب بمنتهى الدقة ..

فلقد تساقطت الصخور الضخمة على قيد خمسة عشر مترًا فحسب من السيارة ، وراحت ترتطم بالأرض ، وتتقافز فوقها ، كما لو كانت كرات مطاطية ضخمة ، أو تتدحرج فوقها فى عنف مخيف ..

ثم سقطت صخرة كبيرة ، فى ضعف حجم السيارة تقريبًا ، وارتطمت بالأرض فى قوة ، ثم قفزت قفزة عجيبة ، على الرغم من ضخامتها ، لتهوى فوق السيارة مباشرة ..

وفى نفس اللحظة التى دفع فيها (أدهم) (جيهان) جانبًا ، هوت الصخرة لتسحق الجزء الأعظم من السيارة سحقًا ..

واتسعت عينا البروفيسير (مانهايم) ، فى مزيج من الذهول والارتياح ، وهو يحدّق فى الصخرة الضخمة ، التى أخطأت رأسه بسنتيمترات قليلة ، ويردِّد :

ـ رباه !.. كانت ستسحق رأسى .. كانت ستقتلنى .

أما (جيهان) ، فقد حدّقت فى وجه (أدهم) لحظة فى ذهول ، قبل أن تهتف :

ـ كيف فعلتها ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة ، وهو يجيب :

ـ وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى(*)

التهمته ببصرها فى ذهول مبهور ، قبل أن تمسح العرق الغزير على جبينه ، وتكرَّر فى حنان بالغ :

ـ لقد فعلتها .

كان من الواضح أن تلك الحركة المباشرة قد استنفدت الكثير من قواه ، إذ بدت لها ابتسامته شاحبة واهنة ، وهو مستسلم تمامًا لأصابعها ، التى تمسح عرقه ، وتتخلَّل شعره الأسود الفاحم ، فغمغمت :

ـ (أدهم) .. أأنت بخير ؟!

صاح البروفيسير (ماتهايم) فى عصبية شديدة :

ـ ليس هذا وقت المشاعر والعواطف .. إننا نموت .. هذا الانهيار الصخرى كاد يسحقنا ..

أدار (أدهم) عينيه إليه ، قائلاً فى حزم ، لايتناسب قط مع حالته :

ـ ولكنه لم يفعل .

صاح البروفيسير :

(*) الآية (١٧) من سورة الأنفال : بسم الله الرحمن الرحيم { وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى } . صدق الله العظيم

ـ ولكن وجود هذه الصخور الضخمة إلى جوارنا يهدِّد وجودنا .

اعتدل (أدهم) قليلاً ، وهو يقول :

ـ على العكس يا بروفيسير .. وجود هذه الصخور الضخمة هو الذى يضمن لنا البقاء .

سأله فى دهشة :

ـ كيف ؟!

أشار (أدهم) بيده ، قائلاً :

ـ الانهيار الصخرى خلفنا منعنا من العودة إلى المدينة ، وتسبَّب فى تدمير سيارتنا ، أما هذا الانهيار أمامنا ، فقد صنع حاجزًا صخريًّا ، يقينا أثر الرياح المدمِّرة .

ثم انحنى ليدفع باب حقيبة السيارة إلى الخارج ، مستطردًا :

ـ وهذا يعنى أننا لم نعد مضطرين للانحشار داخل هذه الحقيبة الضيقة .

ارتسمت ابتسامة حانية على شفتى (جيهان) ، عندما وثب خارج الحقيبة بخفة مدهشة ، كما لو أنه قد استعاد نشاطه كله دفعة واحدة ، فى حين تدلى

الفك السفلى للبروفيسير ، قبل أن يقول فى عصبية :
ـ أأنت واثق مما تقول يا رجل ؟!
فرد (أدهم) ذراعيه عن آخرهما ، وهو يقول :
ـ ما رأيك أنت يا بروفيسير ؟! هأنذا خارج السيارة .. هل ترى الرياح وهى تضربنى بالجدران ؟!
انعقد حاجبا البروفيسير فى توتر ، فى حين قفزت (جيهان) بدورها خارج السيارة ، وتلفتت حولها بشىء من الحذر ، قبل أن يبدو عليها الابتهاج ، وهى تقول :
ـ أنت على حق يا (أدهم) .. مازالت هناك رياح ، مع بعض الرمال والغبار ، إلا أنها محتملة للغاية ، وليست قاتلة كالأخرى .
أشار (أدهم) بيدِه قائلاً :
ـ هذا أمر طبيعى ، فنحن الآن داخل جيب هوائى محصور بين الانهيارين الصخريين ، وستقل سرعة الرياح داخله ، وتفقد أكثر من سبعين فى المائة من قوتها .. ولو أننا انتقلنا إلى جوار الصخور الأمامية ، سيتلاشى تأثير الرياح تقريبًا .
غادر البروفيسير حقيبة السيارة بدوره ، وهو يغمغم :


ثم انحنى ليدفع باب حقيبة السيارة إلى الخارج ..

ـ إذن فلديك خلفيات علمية أيضًا يا رجل القتال .
ابتسم (أدهم) ، وقال مشيرًا إلى رأسه :
ـ العلم والقوة صنوان لا يفترقان يا بروفيسير ، بالنسبة لكل مقاتل ناجح ، ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين .
مطّ البروفيسير شفتيه ، ولوّح بذراعه أمام وجهه ، لإبعاد الرمال والغبار ، قبل أن يقول فى عصبية :
ـ وفيلسوف أيضًا .. قل لى يا رجل : ألست أشبه بإحدى شخصيات الروايات المصوَّرة ، منك ببطل حى حقيقى ؟!
هزَّ (أدهم) كتفيه ، وابتسم ، قائلاً :
ـ الناس لا يمكنهم استيعاب كل ما يفوق قدراتهم الطبيعية البسيطة يا بروفيسير ، ويصعب عليهم تصديق وجود مالا يتفق مع حياتهم اليومية المعتادة ، أو يتجاوز إدراكهم لحقائق الأمور .
أشار البروفيسير بيده ، وهو يسرع نحو الصخور الأمامية ، هاتفًا :
ـ فليكن يا رجل .. فليكن .. إننى لا أحتمل تلك المناقشات الفلسفية قط .

ابتسمت (جيهان) ، والتفتت إلى (أدهم) ، قائلة :
ـ (أدهم) .. جسدك مثخن بالجراح ، ومن الواضح أنك تحتاج إلى الكثير من الراحة ، على الرغم مما تبديه من قوة ونشاط .
منحها ابتسامة عذبة ، قبل أن يغمز بعينه ، هامسًا :
ـ لا تجعلى هذا المظهر يخدعك يا عزيزتى .. الواقع أننى أقف على قدمىَّ بصعوبة ، حفاظًا على كرامتى فحسب ، ولكننى فى الحقيقة أكاد أسقط فاقد الوعى مرة أخرى .
أمسكت ذراعه ، قائلة فى حنان :
ـ هل تعلم ما الذى تحتاج إليه بالضبط ؟! النوم .. النوم العميق لفترة طويلة . قل لى : لِمَ لا تستسلم للنوم ، إلى جوار الصخور الأمامية ، وسأحرص على إيقاظك بنفسى ، فور انتهاء العاصفة ؟!
صمت لحظات ، وهو يتطلّع إليها بابتسامة هادئة ، ثم لم يلبث أن مال نحوها ، هامسًا :
ـ أظنه أفضل اقتراح لك ، طوال الساعات الثلاثين الماضية ، يا زميلتى العزيزة .. يبدو أن ..

قاطعه بغتة اتساع عينيها الشديد ، وهى تحدق فى شىء ما خلف ظهره ، فالتفت بسرعة إلى الصخور الأمامية ، حيث تنظر ، وانعقد حاجباه فى شدة ..

فمن خلف تلك الصخور ، كان ينبعث ضوء مبهر متراقص ، امتزج بسرعة بهدير قوى عنيف ..

هدير لا يشبه أبدًا ذلك الذى تحدثه الانهيارات الصخرية ..

هدير يختلف ..

يختلف إلى حد كبير ..

ومخيف .

* * *



٣ - البديل ..

لم تكد تلك الهليوكوبتر الحربية الصغيرة تظهر فى سماء (سيبيريا) ، حتى تعلقت بها أنظار الجميع ، فى ذلك المعتقل الشهير ، وارتجفت القلوب فى الصدور ، مع تلك الحمى التى انتابت العقول ، واللهفة فى الأعماق ؛ لمعرفة سر قدومها إلى المعتقل ، فى تلك الساعة ..

فمنذ أن ألقى بهم فى هذا الجحيم ، اعتادوا ألا تظهر تلك الهليوكوبتر إلا فى حالتين لا ثالث لهما ..

إما أن تحمل إليهم معتقلاً جديدًا ..

أو قرارًا بإعدام معتقل قديم ..

ولأن أحدًا لا يعلم قط من تعيس الحظ ، الذى حضرت الهليوكوبتر ، حاملة أمر إعدامه ، فقد هوت قلوب الجميع بين أقدامهم ، وازدادت وجوههم شحوبًا وامتقاعًا ، وهم يراقبون هبوطها ، حتى استقرت فى المكان المخصص لها ، وعجزوا عن ازدراد لعابهم ، من شدة جفاف حلوقهم ، وهم يتابعون ذلك الجنرال ،

الذى غادرها فى عظمة واضحة ، وقائد المعتقل يهرع إليه لاستقباله فى احترام واضح ، ثم يقوده إلى حجرته بسرعة ..

وتبادل الجميع نظرات هلع وارتياع ، وكل منهم يتصوَّر نفسه الشخص المنشود ، وتنهار أعماقه فى رعب ..

كل هذا لم يشعر به الجنرال (ميلوسكى) ، وهو يدلف إلى مكتب الكولونيل (إيفان) قائد المعتقل ، ويلوِّح بيده ، قائلاً :

ـ من الواضح أن أحوال المكان على ما يرام يا كولونيل .. يبدو أن سياستى (البريسترويكا)(*) و (الجلاسونست)(**) لم تغيِّرا شيئًا من الأمور ، فى بعض الأماكن .

هزَّ الكولونيل (إيفان) كتفيه ، وقال :

(*) (البريسترويكا) : سياسة إصلاحية انتهجها (ميخائيل جورباتشوف) لتغيير نمط الحياة فى الاتحاد السوفيتى ، ولقد أدت فى النهاية إلى انهياره وتفككه .

(**) الجلاسونست : سياسة أخرى لـ (جورباتشوف) ، تعتمد على مصارحة الشعب بكل الحقائق .

ـ لكل عهد أعداء يا جنرال .

وافقه الجنرال بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ـ بالتأكيد يا كولونيل .. بالتأكيد .

ثم عقد كفيه خلف ظهره ، وتطلَّع إلى (إيفان) بعض الوقت فى صمت ، قبل أن يقول بلهجة تحوى شيئًا من الصرامة :

ـ كولونيل (إيفان) .. عندى لك مهمة جديدة .

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتى (إيفان) ، وهو يقول :

ـ أنت تعلم أننى رهن إشارتك دائمًا يا جنرال .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ـ هل ترغب فى استعارة بعض العمال لمزرعتك الخاصة ؟!

انعقد حاجبا الجنرال لحظة ، وكأنما لا يروق له القول ، وقال فى صرامة :

ـ بل ستنفذ عملية إعدام يا كولونيل .

تراجع (إيفان) بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ عملية إعدام ؟!

وصمت لحظة فى تفكير عميق ، قبل أن يسأل فى حذر :

- بصفة رسمية ؟!

هزَّ الجنرال رأسه نفيًا فى بطء صارم ، دون أن يجيب ، فأومأ الكولونيل برأسه متفهمًا ، وسار نحو مكتبه ، واستند إليه لحظة ، نقر بأصابعه خلالها على سطحه ، قبل أن يسأل فى اقتضاب :

- من ؟!

شدَّ الجنرال هامته ، وهو يجيب فى حزم :

- (بولانسكى) .. البروفيسير (ديوك بولانسكى) .

ارتفع حاجبا الكولونيل بدهشة عارمة ، وارتجفت شفتاه لحظة ، وكأنما لا يجد ما يقوله ، ثم لم يلبث أن هتف بصوت مبحوح ، من فرط الانفعال :

- مستحيل !

قال الجنرال فى صرامة :

- خلال ساعة واحدة يا كولونيل .

هتف الكولونيل مبهوتًا :

- ساعة واحدةٍ ؟!

ثم راح يحكّ ذقنه بسبَّابته طويلاً ، قبل أن يهزّ كتفيه ، قائلاً :

- فليكن يا جنرال .. أنا رهن إشارتك .

وعندما غادر الرجلان حجرة القائد ، جفَّت الدماء فى عروق المعتقلين ، وعادت قلوبهم تسقط فى الجليد بين أقدامهم ، عندما دارت عيون الرجلين فى وجوههم ، قبل أن يهتف (إيفان) فى صرامة قاسية :

- بروفيسير (بولانسكى) .. احضر هنا فورًا .

انتفض جسد (بولانسكى) فى عنف ، وامتقع وجهه حتى كاد تمييزه وسط الثلوج المحيطة به يصبح مستحيلاً ، وتراجع صارخًا :

- أنا لم أفعل شيئًا .. أقسم لكم إننى لم أفعل شيئًا .

انقضَّ عليه الجنود فى شراسة ، وانتزعوه من بين المعتقلين ، وهو يصرخ فى رعب ، فى حين أشار الكولونيل (إيفان) إلى جنوده ، قائلاً فى صرامة :

- باقى المعتقلين فى عنابرهم .. وفورًا .

انطلق المعتقلون يعدون إلى عنابرهم فى ذعر ، والجنود يصرخون فى وجوههم ، ويلوِّحون بمدافعهم الآلية ، و (بولانسكى) ينهار صارخًا :

- لا .. لا أريد أن أموت .. أنا لم أفعل شيئًا .. لم أرتكب أية أخطاء ..

فى نفس اللحظة ، كانت أبواب العنابر الضخمة

تُغلق فى وجوه المعتقلين ، الذين انكمشوا فى أماكنهم ، وصوت الكولونيل (إيفان) يخترق آذانهم ، وهو يهتف فى الخارج :

ـ فرقة الإعدام .. استعد .. اضرب .

ودوت الرصاصات دفعة واحدة ، فانتفضت أجسادهم فى عنف ، قبل أن تنكمش أكثر وأكثر ..

وفى الخارج ، عادت الهليوكوبتر ترتفع ، ثم تنطلق مبتعدة عن معتقل (سيبيريا) ، فى طريقها لبداية فصل جديد من المعركة ..

معركة السنيورا ..

النووية ..

★ ★ ★

خفق قلب (جيهان) فى قوة ، وهى تتطلّع إلى ذلك الضوء المبهر ، الذى يطلّ من خلف الصخور الأمامية ، مع الهدير القوى المصاحب له ، فى حين تراجع البروفيسير (مانهايم) فى هلع ، وهو يهتف :

ـ رباه ! ما هذا ؟! وحش كاسر ؟!

أجابه (أدهم) فى صرامة ، دون أن يرفع عينيه عن الضوء :

ـ الوحوش الكاسرة لم تتطوّر بعد يا بروفيسير ، إلى الحد الذى تستخدم معه المصابيح المبهرة والمحركات القوية .

وهنا اندفعت (جيهان) تقول :

ـ أنت على حق يا (أدهم) .. إنها إحدى الآلات القوية .. هدير محركها ، مع صمودها فى قلب العاصفة ، يؤكدان أنها ثقيلة قوية .

صاح البروفيسير فى لهفة :

ـ إذن فيمكنها إنقاذنا ، وإخراجنا من هنا .

ثم اندفع نحو الصخور ، صائحًا :

ـ النجدة .. نحن مسجونون هنا .. أنقذونا .. النـ ...

وثب (أدهم) نحوه فى خفة ، على الرغم من إصاباته وإجهاده ، ووضع كفه على فمه ، قائلاً فى صرامة :

ـ اصمت يا رجل .. لا تستنجد بمن تجهل هويتهم ، فى مثل هذه الظروف ..

قاومه العالم فى عنف ، محاولاً التخلّص منه ، وراح يضرب بذراعيه وساقيه ، فى حين هتفت (جيهان) فى قلق :

- أتعتقد أنهم قد سمعوه يا (أدهم) ؟!
هزَّ رأسه نفيًا فى حزم ، وهو يقول :
- كلاَّ .. هدير المحرك قوى للغاية ، والرياح العاصفة تهبّ فى اتجاهنا .
ترددت لحظة ، ثم مالت تسأله :
- وماذا لو أن بإمكانهم إنقاذنا بالفعل ؟!
أجابها بنفس الحزم :
- لا يمكننا أن نجازف .
أزاح البروفيسير يد (أدهم) عن فمه ، فى هذه اللحظة ، وصرخ بكل قوته :
- النجدة .. انقذونى .. أخرجونى من هذا الجحيم .
وفى نفس اللحظة ، التى انطلقت فيها صرخته ، وبتزامن دقيق مدهش ، توقف هدير المحركات ، فجلجلت الصرخة بين الحاجزين الصخريين ، على نحو قوى واضح ، جعل (جيهان) تقول فى حنق :
- اللعنة !..
أشار (أدهم) إليها بالصمت ، وهو يقول للبروفيسير فى صرامة غاضبة :
- معذرة يا بروفيسير ، ولكنك تثير المتاعب كثيرًا .

ومع نهاية عبارته ، هوى بقبضته على فك البروفيسير بلكمة عنيفة ، ارتجّ لها كيان الرجل فى قوة ، قبل أن يتهاوى فاقد الوعى ، بين ذراعى (أدهم) ، الذى أرقده أرضًا فى رفق ، و (جيهان) تسأل قلقة :
- لقد سمعوه هذه المرة .. أليس كذلك ؟!
أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، وهو يضع سبّابته على شفتيه ، ثم تحرك فى خفة نحو الصخور الأمامية ، ولحقت به هى فى سرعة ، وراحا يتسلقانها فى خفة ..
ولكن فجأة ، انطلق الهدير مرة أخرى ، مع ذلك الضوء الساطع ..
ثم ارتطم شىء ما بالصخور ..
ارتطم بها فى شدة ، على نحو فقد معه (أدهم) و (جيهان) اتزانهما ، و ...
وسقطا ..
سقطا على أرضية الممر ، فى نفس اللحظة التى بدأت فيها الصخور مرحلة السقوط ..
نحوهما ..

وكان هذا يعنى أنهما يواجهان خطرًا جديدًا :

خطر الانسحاق تحت أطنان من الصخور الهائلة ، فى قلب ممر (بيليجرو) ..

ممر الجحيم ..

★ ★ ★

تسلَّلت دقات هادئة إلى أذنى (منى) ، وهى تعدّ حقيبتها ، فى حجرتها بالمستشفى ، فأدارت عينيها إلى الباب ، قائلة :

ـ ادخل .

تساءلت فى أعماقها عن القادم ، وهى تتابع حركة الباب فى اهتمام ، ولم يكد بصرها يقع عليه ، حتى هتفت فى دهشة :

ـ (عماد) ؟!

ابتسم الطبيب الوسيم الشاب فى هدوء ، وهو يقول :

ـ أتسمحين لى بالدخول ؟!

حدّقت فى وجهه لحظة بدهشة ، قبل أن تقول :

ـ بالطبع يا دكتور (عماد) .. تفضل .

تقدَّم إلى الداخل فى شىء من الحرج ، وهو يقول مرتبكًا :

ـ والدتك أخبرتنى أنك ستغادرين المستشفى اليوم ، ورأيت أنه من الأفضل أن أوصلك إلى المنزل بنفسى ، و ...

تضاعف ارتباكه ، فلم يستطع إكمال عبارته ، وراح يلوِّح بكفيه بلا معنى ، مع ابتسامة مضطربة ، أثارت الشفقة فى نفسها ، فغمغمت :

ـ شكرًا جزيلاً على اهتمامك يا دكتور (عماد) ، ولكن أحد زملائى سيقوم بهذه المهمة بالفعل ، وهو فى طريقه إلى هنا الآن ، ولا يمكننى أن ..

قاطعها بغتة :

ـ (منى) .. هل ترفضيننى ؟

هتفت بدهشة مرتبكة :

ـ أرفضك ؟!

اندفع فجأة يقول فى انفعال ، وكأنما قرَّر طرح أفكاره كلها دفعة واحدة :

ـ (منى) .. إننى شديد الاهتمام بك ، منذ عدة سنوات ، وربما منذ كنا صغيرين ، نلهو معًا فى حديقة منزل جدى .. صحيح أننى أصغرك بعام واحد ، ولكن حلم حياتى أن أرتبط بك .. أعنى أن نتزوَّج ، و ..

عاوده الارتباك أكثر وأكثر ، فتراجع متمتمًا :
ـ وكفى .
حدَّقت فيه لحظات فى صمت ، قبل أن تقول :
ـ دكتور (عماد) .. الواقع أننى ..
قاطعها فى لهفة :
ـ لا .. لا تتسرَّعى بالجواب .. خذى كل وقتك للتفكير واتخاذ القرار .. أعلم أن الأمر ليس سهلاً ، وأن طبيعة مهنتك تجعلك شديدة الحذر ، و ...
هتفت بدهشة :
ـ طبيعة مهنتى ؟!
أجابها بسرعة :
ـ نعم .. والدتك أخبرتنى أنك تعملين فى جهة أمنية مهمة ، والعاملون فى مثل هذا المجال يلتزمون الحذر أكثر من غيرهم فى المعتاد .
ظلَّت تتطلَّع إليه فى صمت ، على الرغم من الغضب الهادر ، الذى تصاعد من أعماقها ، لأن والدتها أفصحت عن أمر كهذا ، ثم لم تلبث أن أدارت عينيها عنه ، وغمغمت فى شىء من التوتر :
ـ (قدرى) !

قال الدكتور (عادل) فى حيرة :
ـ (قدرى) ؟! من (قدرى) هذا ؟!
أتاه الجواب من خلفه مباشرة ، بصوت هادئ ، يقول :
ـ إنه أنا يا فتى .
التفت (عادل) فى دهشة إلى (قدرى) ، الذى منحه ابتسامة هادئة ، مستطردًا :
ـ يسعدنى لقاؤك .
صافحه الطبيب الشاب فى ارتباك ، وهو يقول :
ـ أنا أيضًا يسعدنى لقاؤك يا سيِّد (قدرى) .. اسمى (عادل) ، طبيب بشرى ، فى الـ ...
قاطعته (منى) ، فى شىء من الحزم :
ـ أنا مستعدة للانصراف يا (قدرى) .
أسرع (قدرى) يلتقط حقيبتها ، وهو يقول :
ـ فرصة سعيدة للغاية يا دكتور (عادل) .. كنت أتمنى أن أقضى معك بعض الوقت ، ولكن ..
لم يجد ما يكمل به عباراته المجاملة ، فأسرع يغادر الحجرة ، فى حين توقَّفت (منى) لتصافح الطبيب الشاب فى هدوء ، قائلة :

- معذرة يا دكتور (عادل) ، ولكن بعض الأمور تضطرنى للمغادرة الآن .. إنها طبيعة مهنتى ، كما أخبرتك أمى .

- تمتم :

- بالطبع .. بالطبع .. يمكننى تقدير هذا .

ثم مال نحوها ، مستطردًا بصوت متهدِّج :

- ولكن .. هل تعديننى بالتفكير فى الأمر ؟

ابتسمت قائلة :

- أعدك يا دكتور (عادل) .. أعدك ..

راقبهما (قدرى) فى صمت ، دون أنْ يعلِّق على الموقف ، وظلّ على صمته حتى انطلقت سيارته مبتعدة عن المستشفى ، ثم قال فى شىء من الحذر :

- كنت قاسية للغاية على الفتى .

تنهَّدت قائلة فى أسف :

- هذا صحيح .

ثم استطردت فى لهفة واهتمام :

- ولكن دعك من هذا الآن .. هل من أخبار جديدة عن (أدهم) ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، فهتفت :

- رباه !.. وكيف يمكنك السكوت أيها السخيف .. هات ما لديك بسرعة ؟!

هزَّ كتفيه المكتظتين ، قائلاً :

- أنت تعلمين كم من العسير أن يحصل المرء على معلومات خاصة بعمليات الجهاز ، حتى ولو كان أحد العاملين فيه ، وخصوصًا المعلومات التى ترتبط بالعملاء ذوى الحيثية ، مثل صديقنا (أدهم صبرى) وزميلته (جيهان) ، و ...

قاطعته فى حدة :

- هات ما لديك يا (قدرى) .

تنهَّد فى عمق ، وهزَّ رأسه لحظة ، ثم قال :

- كل ما استطعت الحصول عليه ، هو أن (أدهم) و (جيهان) فى (البرازيل) .

هتفت فى دهشة :

- (البرازيل) ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

- وفى (ريو دى جانيرو) بالتحديد .

اتسعت عيناها لحظة فى ارتياع ، قبل أن تهتف :

- رباه !.. ولكن نشرات الأخبار تؤكد أن تلك

المنطقة تواجه أعنف عواصف فى تاريخ هذا القرن .

تمتم فى خفوت مفعم بالتوتر :

ـ بالضبط .

ثم مال نحوها ، مستطردًا بصوت خافت :

ـ وآخر برقية أرسلها (أدهم) ، كانت قبل أن تهبَّ العاصفة مباشرة ، والجميع يخشون أن يكون قد نفذ ما جاء بها ، واتخذ ممر (بيليجرو) ، لبلوغ الطريق الخلفى للعاصمة (برازيليا) .

سألته بصوت مرتجف :

ـ ولماذا يخشون هذا الأمر؟!

أوقف السيارة على جانب الطريق ، وكأنما لا يمكنه أن يقود ، ويلقى إليها بالخبر فى آن واحد ، ثم التفت إليها ، قائلًا بصوت انتفض له قلبها بين ضلوعها :

ـ لأن ممر (بيليجرو) هو الذى تلقَّى الصفعة الكبرى ، من هذه الرياح القاتلة .

واتسعت عينا (منى) فى ارتياع ..

إذن فقد كانت كل مخاوفها على حق ..

إن (أدهم) يواجه خطرًا رهيبًا ..

خطرًا بلا حدود ..

* * *

كان الموقف خطيرًا بحق ..

(أدهم) و (جيهان) سقطا أرضًا ، والصخور الضخمة تتساقط فوقهما ، فى قلب ممر الخطر ..

وسقوط صخور ضخمة كهذه ، لا يحتاج لأكثر من ثوان معدودة ..

وثقلها يكفى لسحق الجميع ..

وبلا هوادة ..

البروفيسير (مانهايم) ..

و (جيهان) ..

وحتى (أدهم صبرى) نفسه ..

ولكن الأخير بالذات تحرَّك بسرعة مذهلة ، جعلت عينا البروفيسير تتسعان فى انبهار ، وفكه السفلى يسقط مبهوتًا ..

ففى نفس اللحظة ، التى سقط فيها على الأرض ، هبَّ (أدهم) واقفًا ، ودفع (جيهان) جانبًا بكل قوته ، وهو يهتف :

ـ التصقى بالجدار .

ثم اندفع نحو البروفيسير بسرعة البرق ، وانتزعه من الأرض انتزاعًا ، وانطلق يعدو به نحو الجدار ..

وأمام عينى (جيهان) المذعورتين ، ارتطمت صخرة كبيرة بالأرض ، ثم اندفعت تتدحرج بسرعة مدهشة ، نحو (أدهم) والبروفيسير ..

وبكل قوتها ، التصقت (جيهان) بالجدار الصخرى ، صائحة :

- (أدهم) .. احترس يا (أدهم) .

انطلق (أدهم) يعدو بأقصى سرعته ، حاملاً البروفيسير على كتفيه ، والصخرة الهائلة تطارده فى إصرار ..

وتزايدت سرعته على نحو عجيب ، على الرغم من جراحه وإصاباته ، حتى صار أشبه بآلة بشرية ، تم تجهيزها لغرض واحد محدود ..

العدو ..

واتسعت عينا البروفيسير (مانهايم) أكثر وأكثر ..

كان ذلك الذى يحدث أمامه مباشرة ، أمرًا يتجاوز كل قواعد العلم والطب ، والفسيولوجيا(*) ..

بل وحتى قوانين الحركة ..

(*) الفسيولوجيا : علم وظائف الأعضاء ..

ما من بشرى ، يمكنه أن يعدو بهذه السرعة المدهشة ..

حتى ولو لم يكن مصابًا بكل تلك الإصابات ، ويحمل رجلاً ناضجًا على كتفيه ..

وبكل دهشته وذعره وانبهاره ، هتف البروفيسير :

- مستحيل !.. أنت رجل مستحيل !

وفى نفس اللحظة التى هتف فيها بعبارته ، وثب (أدهم) ..

كانت وثبته جانبية مدهشة ، تجاوز معها أربعة أمتار دفعة واحدة ، قبل أن يلتصق مع حمله بالجدار الصخرى ..

وشهق البروفيسير (مانهايم) فى ارتياع ، عندما عبرت الصخرة الهائلة على مسافة سنتيمتر واحد من رأسه ؛ لتواصل طريقها عبر الممر ، حتى ارتطمت بالصخور الخلفية ، واستقرَّت عندها ..

ولثوان ، لم يُسمع فى الممر سوى ذلك الهدير المخيف ، الذى بدا وكأنه يتراجع مبتعدًا ، والضوء المبهر ينسحب معه رويدًا رويدًا ، ثم تفجَّر فجأة صوت (جيهان) ، وهى تعدو نحو (أدهم)

والبروفيسير ، هاتفة فى لهفة مذعورة :

- (أدهم) .. (أدهم) .. أأنت بخير ؟!

انحنى (أدهم) ، ليضع البروفيسير أرضًا ، وهو يجيب :

- حمدًا لله (سبحانه وتعالى) ، صاحب كل الفضل .

هتف البروفيسير ، وهو يلوِّح بسبَّابته فى وجه (أدهم) :

- هذا الرجل رائع .. مستحيل !.. معجزة .. إننى مبهور بما فعله ، وأكاد لا أصدِّقه ، على الرغم من أننى رأيته بعينى .

ارتفع حاجبا (جيهان) فى حنان مبهور ، وهى تتطلَّع إلى (أدهم) ، قائلة :

- لقد شاهدت فعلاً واحدًا من أفعاله يا بروفيسير ، فما بالك بى ، إننى رأيت العشرات من هذه الأفعال المبهرة ؟!

هتف البروفيسير :

- أنتما أمريكيان .. أليس كذلك ؟!

ارتفع حاجباها ، وهى تقول فى دهشة :

- أمريكيان ؟! ولماذا ؟!

لوَّح بذراعيه ، هاتفًا فى حماس :

- بسبب أعمالكما المبهرة .. رجال المخابرات المركزية الأمريكية وحدهم يمكنهم فعل كل هذا .

تبادل (أدهم) و (جيهان) نظرة ساخرة ، قبل أن تغمغم هى :

- حقًا ؟!

ثم أشارت بيدها إلى (أدهم) ، قائلة :

- وماذا لو أخبرتك أن هذا الرجل ، الذى بهرتك أعماله ، وجعلتك تتحدَّث بكل هذا الحماس ، ليس أمريكيًا على الإطلاق ، وإنما هو مصـ ...

بترت عبارتها بغتة ، وهى تصرخ :

- (أدهم) .. ماذا أصابك ؟!

هتفت بها ، وهى تثب نحوه بكل قوتها ، محاولة التقاطه ، عندما شحب وجهه بغتة ، وزاغت عيناه ، و ...

وهوى ..

هوى بلا حراك ، على أرضية الممر ..

ممر الجحيم .

* * *

٤ - بعد العاصفة ..

« سبعة قتلى ، وأكثر من أربعين مصابًا يا زميلى .. »

نطق مفتش الشرطة العبارة ، وهو يراجع آخر التقارير الواردة ، خلال الدقائق العشرين الأخيرة ، ثم أشار بيده لزميله المفتش (باندرياس) ، مستطردًا :

- وكأننا نخوض حربًا ضروسًا مع الطبيعة .

غمغم (باندرياس) ، وهو يتطلّع عبر النافذة :

- العاصفة هدأت .

التفت إليه زميله فى دهشة ، قائلاً :

- ماذا ؟!

أشار (باندرياس) إلى المشهد فى الخارج ، مكررًا :

- العاصفة هدأت .. لم تعد عنيفة كذى قبل .

تطلّع إليه زميله لحظة فى حيرة ، ثم نهض إليه ، قائلاً :

- وكيف عرفت ؟! هل استمعت إلى النشرة الجوية قريبًا ؟



هوى بلا حراك ، على أرضية الممر ..

هز (باندرياس) رأسه نفيًا فى بطء ، قبل أن يجيب :

ـ كلاً ، ولكن أشجار النخيل لم تعد تنحنى للعاصفة بشدة ، وأمواج المحيط هدأت على نحو ملحوظ .

تنهَّد زميله ، قائلاً :

ـ حمدًا للَّه .. هذا يعنى أن الحوادث ستنخفض أخيرًا .

أجابه (باندرياس) :

ـ بالتأكيد .. الأمور ستعود بسرعة إلى سابق عهدها ، بعد إعادة تنظيم ما قلبته العاصفة .. انظر .. ها هى ذى أوَّل سيارة تتحدَّى العاصفة ، وتثبت لنا أنها قد هدأت كثيرًا .

ارتفع حاجبا زميله ، وهو يقول فى شىء من الدهشة :

ـ سيارة ؟!

ثم اتجه إليه ، وألقى نظرة عبر النافذة بدوره ، على السيارة السوداء الكبيرة ، التى تنطلق عبر شوارع المدينة ، قبل أن يغمغم :

ـ عجبًا !.. لا ريب فى أن قائد هذه السيارة لديه

سبب قوى للغاية ، حتى يغادر منزله ، فى مثل هذه الظروف .

قالها ، دون أن يدرى أن ركاب السيارة السوداء ، لديهم بالفعل سبب قوى للغاية ؛ لينطلقوا بسيارتهم ، فى هذا الطقس ..

سبب يحمل اسم (أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

ففى داخل السيارة ، كان (كوادروس) يطلق زفرة متوترة ، ويسأل (أندروفيتش) فى شىء من العصبية :

ـ ألم يكن من الأفضل أن تنتظر انتهاء العاصفة أيها القائد .. الجميع يشعرون بالقلق ، لخروجهم فى مثل هذه الظروف ؟!

أجابه الروسى فى صرامة :

ـ لقد تقاضوا أجورًا باهظة ؛ ليفعلوا ما لا يقدر على فعله سواهم ..

غمغم (كوادروس) :

ـ هذا صحيح ، ولكن العاصفة ..

قاطعه (أندروفيتش) فى صرامة :

- ما دمنا قد استطعنا الخروج ، فى هذه المرحلة منها ، فهذا يعنى أن (أدهم صبرى) أيضًا يمكنه تجاوزها ، ومن الخطأ أن نمنحه نقطة تفوق واحدة .. لابد وأن نلتقطه قبل أن يلتقط هو أنفاسه .

تمتم (كوادروس) معترضًا :

- المهم أن نلتقط نحن أنفاسنا أيضًا .

أشار إليه الروسى فى صرامة ، قائلا :

- اصمت وقد السيارة يا رجل .

مطَّ (كوادروس) شفتيه معترضًا ، ولاذ بالصمت المحنق ، وهو يواصل قيادة السيارة ، حتى بلغ مطار باخوس ، وتوقف أمام حظيرة طائرات كبيرة ، وهنا فقط غمغم :

- أتعشَّم أن يكون الرجال هنا .

غادر (أندروفيتش) السيارة ، وهو يقول بلهجته الباردة :

- وأن يكونوا قد انتهوا من عملهم ، وإلا ...

لم يتمّ عبارته ، وإن بدا معناها واضحًا جليًا ، على نحو جعل (كوادروس) يشعر فى أعماقه بشفقة مسبقة ، تجاه أصحاب الهليوكوبتر ، لو أنهم لم يتمّوا عملهم بالفعل ..

أما (أندروفيتش) ، فقد توقَّف لحظة ، ليشعر بقوة الرياح ، التى تزيد سرعتها على أربعمائة كيلومتر فى الساعة ، ثم تحرَّك فى خطوات سريعة إلى حظيرة الطائرات ، ولم يكد يدلف إليها ، حتى التفت إليه أربعة من العمال ، الذين يحيطون بطائرة هليوكوبتر كبيرة ، فى حين اندفع نحوه رجل خامس ، يسأله فى توتر :

- من أنت ؟! كيف دخلت إلى هنا ؟

انتزع (أندروفيتش) قفازه الأنيق ، وهو يجيب فى برود :

- سؤالك الثانى ساذج وسخيف يا رجل ؛ لأن أى شخص يمكنه دخول مطارك ، الذى تركت بوَّابته مفتوحة على مصراعيها ، دون حارس معوِّق واحد ، حتى إنه ليدهشنى أن طائراتك مازالت على المهبط ، دون أن يسرقها أحد ، أما بالنسبة لسؤالك الأول ، فأنا الرجل ، الذى يدفع ثمن كل هذا .. الهليوكوبتر ، والمدافع الآلية ، والذخيرة .. وكل شىء ..

ارتفع حاجبا الرجل فى دهشة ، وهتف :

- آه .. سنيور (أندروفيتش) .. معذرة يا سيِّدى ..

لماذا لم تبلغنا بحضورك ؛ لنتأهَّب لاستقبالك على نحو لائق .

تجاهل الروسى عبارات النفاق والمجاملة ، وأشار إلى الهليوكوبتر ، قائلاً بلهجته الجافة الباردة :

ـ هل أعددتم كل شىء ؟

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ كل شىء على ما يرام تقريبًا يا سنيور (أندروفيتش) .. الهليوكوبتر مزوَّدة بالوقود ، ولقد أضفنا إليها أربعة مدافع آلية ، وصاروخين ، وكلها يمكن إطلاقها من مقعد القيادة ، بوساطة أزرار دقيقة ، و ...

قاطعه الروسى :

ـ لماذا تقريبًا إذن ؟!

لم يفهم الرجل ما يعنيه السؤال ، فتمتم فى توتر :

ـ عفوًا !

أشار الروسى بسبَّابته ، مكررًا فى حزم :

ـ لماذا استخدمت كلمة (تقريبًا) ؟! الأمر يبدو لى مكتملاً .

هتف الرجل :

ـ فيما عدا الطيَّار .

التقى حاجبا (أندروفيتش) ، وهو يسأله :

ـ هل سننتظره طويلاً ؟

هرش الرجل رأسه ، مجيبًا :

ـ أعتقد أنكم ستنتظرونه أكثر مما ينبغى يا سنيور ؛ فكل طيارينا يرفضون الإقلاع ، فى هذه الظروف المناخية ، ويصرّون على الانتظار حتى تنتهى العاصفة ، أو يهدأ الـ ...

قاطعه الروسى فى حزم صارم :

ـ لسنا نريد طيَّارًا .

هتف الرجل فى دهشة :

ـ ماذا ؟!

أجابه (أندروفيتش) فى حزم ، وهو يبرز بطاقة خاصة من جيبه :

ـ أنا أحمل تصريحًا بالطيران ، وسأقود الهليوكوبتر بنفسى .

حدَّق الرجل فى التصريح لحظات فى دهشة ، قبل أن يرفع عينيه إليه ، متسائلاً فى قلق شديد :

ـ هل تعتقد أنه بإمكانك قيادتها ؟!

ارتسمت على شفتى الروسى ابتسامة ساخرة ، وهو يلقى نظرة على الهليوكوبتر ، مجيبًا :

ـ لو أننى أخبرتك بطراز الطائرات التى قدتها يا رجل ، لشعرت بالخجل لسؤالك هذا .

صمت الرجل بضع لحظات ، قبل أن يهزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ فليكن .. تصريحك يسمح لك بقيادتها بالفعل .. سننتهى من إعدادها ، قبل انتهاء العاصفة ، و ...

قاطعه الروسى ثانية :

ـ سنقلع الآن يا رجل .

حدّق الرجل فى وجهه بدهشة ، هاتفًا :

ـ ماذا ؟!

أجابه الروسى بصرامة مخيفة :

ـ الآن يا رجل .

ثم التقى حاجباه الكثان فى شدة ، على الرغم من تلك النبرة الساخرة فى صوته ، وهو يتابع :

ـ فالشمس ستشرق بعد قليل ، والصيد الذى نسعى خلفه ، يبدأ يومه عادة قبل الجميع ، وأنا أرغب فى أن أقدّم له مفاجأة كاملة ..

وتألّقت عيناه ، وهو يضيف :

ـ أقوى مفاجأة فى حياته ..

وتسللت إلى شفتيه ابتسامة مبتسرة ، مع استطرادته :

ـ وآخرها .

وازدادت عيناه تألقًا ..

بشدة ..

* * *

فجأة ودون أية مقدمات ، استيقظ عقل (أدهم) ..

وعندما نطلق عبارة كهذه ، على عقل رجل مثل (أدهم صبرى) ، فهى تعنى الكثير ..

والكثير جدًا ..

فكل الدراسات الطبية الحديثة ، تؤكّد أن الرجل البالغ يحتاج إلى ست ساعات من النوم المتصل يوميًا ، على الأقل ، حتى يمكنه العمل والتفكير كما ينبغى ..

ولكن إيقاع حياة (أدهم صبرى) لم يحظ قط بتلك الرفاهية ..

لقد اعتاد جسده وعقله ألا يخلدا للنوم أكثر من ساعات أربع ، طوال اليوم بأكمله ..

وهذا على أقصى تقدير ..

لذا فقد طوَّر جسده نفسه ، ليتواءم مع هذا الكم الضئيل من النوم ..

وهذه واحدة من أفضل مميزات الجسد البشرى ، وأعظم الصفات ، التى وضعها فيه الخالق (عزَّ وجلَّ) .

قدرته المدهشة على التكيّف ، وملاءمة كل الظروف .

فالجسد البشرى ، الذى يحيا فى قلب الصحراء ، عند خط الاستواء(*) ، يمكنه أن يعدِّل من صفاته ، ويتكيَّف تمامًا على العيش فى قلب (ألاسكا)(**) ، لو اقتضت الظروف ..

والعكس بالعكس ..

وعندما استيقظ عقل (أدهم) وجسده ، فى قلب ممر الخطر ، كان يخرج من غيبوبة عميقة ،

(*) خط الاستواء : هو خط العرض رقم (صفر) ، على خريطة العالم ، الذى يقسم الكرة الأرضية إلى نصفين ، شمالى وجنوبى ، ويتم تحديد كل خطوط العرض نسبة إليه .

(**) ألاسكا : ولاية أمريكية ، عاصمتها (جونو) ، اشترتها (أمريكا) من (روسيا) عام ١٨٦٧ م ، وظهرت أهميتها الحربية فى الحرب العالمية الثانية ، ومن أهم مواردها الأسماك ، والمعادن ، والفراء ، والزراعة بها قليلة .

استغرقت أربع ساعات كاملة ..

ولقد أحسن جسده وعقله استغلال هذه الساعات الأربع .

ولأقصى حد ..

الجسد استعاد نشاطه وكفاءته ، بعد تعويض ما فقده من دماء ، ومابذلته كل عضلة فيه من جهد هائل ..

والعقل عاد إلى صفائه وسرعة تفكيره ، وقدرته المدهشة على تبادل المعلومات مع أجهزة الجسم المختلفة بسرعة خارقة ، تفوق مثيلتها مع الآخرين بعشر مرات على الأقل ..

لذا ، فعندما نقول : إن عقل (أدهم صبرى) قد استيقظ بغتة ، فإننا نعنى أنه قد استعاد كل كفاءته ..

ودفعة واحدة ..

وفى هدوء ، نهض (أدهم) جالسًا ، وتلفَّت حوله فى اهتمام ..

كانت (جيهان) راقدة إلى جواره ، غارقة فى نوم مجهد عميق ، والبروفيسير (مانهايم) على قيد خطوات منهما ، والشمس توشك على الشروق ، وسط العاصفة ، التى فقدت أكثر من ستين فى المائة على الأقل من حدتها ..

والصخور الضخمة متناثرة فى كل مكان ، وبالذات حول السيارة ، التى تحولت بفعل الانهيار إلى كومة من الخردة المسحوقة ..

وفى خفة ونشاط ، هبَّ (أدهم) واقفًا ، وتثاءب ، قائلا :

- حمدًا لله .. لقد استعدت معظم نشاطى ، بعد كل ما حدث ، منذ وصولنا إلى هنا .. كان جسدى يحتاج إلى بعض الراحة بالتأكيد .

لم يكد ينطقها ، حتى انعقد حاجباه على نحو مباغت ..

وبشدة ..

فوسط ذلك المزيج المعقَّد من الأصوات ، الذى تصنعه الرياح ، مع احتكاكها بالجدران الصخرية للممر، والصخور المتناثرة فيه ، وأوراق الشجيرات الصغيرة ، وغيرها ، ميَّزت أذنه الحساسة المرهفة أزيز مروحة هليوكوبتر تقترب ..

وبسرعة ، انحنى (أدهم) يوقظ (جيهان) ، قائلاً فى حزم :

- (جيهان) .. استيقظى .

فتحت عينيها فى دهشة ، وهتفت فى فرح :

- (أدهم) .. هل استعدت وعيك ؟!

تجاهل سؤالها تمامًا ، وهو يستطرد :

- هناك هليوكوبتر فى الطريق .

حدَّقت فى وجهه ، وكأنها لا تفهم عبارته ، فى حين قفز البروفيسير (مانهايم) من مكانه ، هاتفًا فى لهفة :

- هليوكوبتر ؟! إذن فقد وصلت النجدة أخيرًا !

التفت إليه (أدهم) ، قائلاً فى صرامة :

- أسرع إلى ذلك الركن هناك ، أسفل تلك الصخرة الضخمة .

أشار البروفيسير إلى السماء ، هاتفًا بلهجة استنكار :

- ولكنها لن تلمحنا عندئذ .

أجابه (أدهم) فى صرامة شديدة :

- هذا هو المطلوب .

بدت الدهشة على وجه البروفيسير لحظة ، وهمَّ بالاعتراض بعبارة أخرى ، إلا أنه لم يلبث أن تذكَّر نكمة (أدهم) وتأثيرها ، فأطبق شفتيه ، وعقد

حاجبيه ، وهو يسرع نحو الصخرة ، التى أشار إليها هذا الأخير ، فى حين سألت (جيهان) فى قلق ، وهى تتجه إلى الصخرة بدورها :

- هل تعتقد أن تلك الهليوكوبتر تسعى خلفنا ؟

أجابها فى حزم :

- ألديك سبب آخر ، لخروج هليوكوبتر ، فى مثل هذا الطقس ؟!

التقى حاجباها الجميلان ، دون أن تنبس ببنت شفة ، وأخفت جسدها بقدر الإمكان أسفل الصخرة ، والبروفيسير يقول فى عصبية :

- وماذا لو أنها تسعى خلفنا لإنقاذنا ؟

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، قائلاً :

- أؤكد لك أننا لسنا مشهدًا هزليًا ، فى فيلم من أفلام الدرجة الثالثة .

هزت (جيهان) رأسها ، مغمغمة :

- ولكننى لا أميز صوت الهليوكوبتر ، و ...

قبل أن تتمّ عبارتها ، برزت الهليوكوبتر بغتة ، فى سماء الممر ..

وفى نفس اللحظة تقريبًا ، أشار إليها (أدهم)

فى صرامة ، لتلوذ بالصمت ..

وفى توتر بالغ ، تعلّقت عيون الثلاثة بالهليوكوبتر، التى توقّفت قليلاً فى سماء الممر ، وكأنما يبحث قائدها عن شىء ما ، ثم انطلق من قاعدتها ضوء قوى ، غمر المكان كله ، وراحت تدور حول نفسها فى بطء ، والبروفيسير يغمغم فى توتر شديد :

- مع هذا الضوء المبهر ، سيمكنهم رؤية حطام السيارة .

قال (أدهم) فى حزم :

- ليس من هذه الزاوية .

أما (جيهان) ، فتمتمت :

- كنت على حق يا (أدهم) .. إنها تبحث عنا .

واصلت الهليوكوبتر دورانها حول نفسها بعض الوقت ، وكأنما تتفحّص المنطقة جيدًا ، ثم لم تلبث أن ابتعدت مواصلة البحث عبر الممر، فغمغمت (جيهان) :

- حمدًا لله .. لقد انصرفت .

أجابها (أدهم) فى حزم ، وهو يغادر مكمنه :

- ستعود إلينا حتمًا ، بعد أن تكشف عدم وجودنا فى الممر .

هتف البروفيسير فى حنق :

- تصرفاتكما هذه لا تروق لى أبدًا .. إنكما تتحدثان بلغة أجهلها ، وتنظران إلى كل الأمور بمنظار أسود.. من أدراكما أن تلك الطائرة لم تكن تسعى لإنقاذنا بالفعل ؟!

التفت إليه (أدهم) ، قائلاً فى سخرية :

- ستكون المرة الأولى ، التى أرى فيها هليوكوبتر إنقاذ بهذا الحجم ، تم تزويدها بأربعة مدافع آلية طويلة المدى ، وصاروخين موجهين ، يمكن لكل منهما نسف دبابة كاملة .

اتسعت عينا البروفيسير ، وهو يقول بدهشة :

- كيف أمكنك أن تلاحظ كل هذا ؟!

ابتسمت (جيهان) ، قائلة :

- لا تُشغل عقلك بالتفكير فى هذا يا بروفيسير .. الرجل الذى أمامك يمكنه أن يفعل ما يعجز عقلك عن تصورّه .

أومأ برأسه ، مغمغمًا فى انبهار :

- لقد رأيت بنفسى .

بدا الضيق على وجه (أدهم) ، وكأنما لا يحتمل

هذا المديح ، وقال فى صرامة :

- دعونا من هذه السخافات .. تلك الهليوكوبتر ستعود إلينا حتمًا ، ومع زاوية طيرانها فى أثناء العودة ، سيكون من السهل على ركابها أن يلمحوا حطام السيارة ، خاصة وأن الشمس سيكتمل شروقها بعد قليل ، ولست أحب أن أواجههم داخل هذه المصيدة .

سألته (جيهان) فى اهتمام :

- ماذا تقترح إذن ؟!

أشار إلى الصخور الأمامية ، قائلاً :

- أن نعبر هذا الحاجز ، ونخرج من المصيدة .

هتف البروفيسير معترضًا :

- خطأ يا رجل .. خطأ .. خروجنا من هنا سيجعلنا مكشوفين داخل الممر، الذى يمتدّ لعدة كيلومترات أخرى ، مما يجعل منا هدفًا سهلاً ، لراكبى تلك الهليوكوبتر .

أجابه (أدهم) بسرعة :

- لست أعتقد هذا يا بروفيسير ، فمن المؤكّد أن الانهيارات لم تحدث فى تلك المنطقة وحدها من الممر،

وإنما حدثت حتمًا فى أماكن أخرى ، ولو أننا خرجنا من تلك المصيدة ، فسنجد حتمًا أماكن يمكن الاختفاء فيها ، عندما تعود الهليوكوبتر .

قال البروفيسير فى عصبية :

ـ ولماذا لا نبقى هنا ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لأنهم ، عندما يلمحون حطام السيارة ، سيهبطون حتمًا لتفقده ، وسيكونون مسلحين بالمدافع الآلية ، والقنابل اليدوية أيضًا ، ونحن نجهل عددهم وعدتهم ، ولسنا نملك أية أسلحة لمواجهتهم .

أجابته (جيهان) بلهجة مرحة ، لا تتفق قط مع الموقف :

ـ خطأ .. إننا نملك مسدسًا وأربعة رصاصات .. لقد انتزعته من بين حطام السيارة ، فى أثناء فقدانك الوعى .

التفت إليها (أدهم) ، قائلاً فى حزم :

ـ وماذا لو قرروا إطلاق أحد الصاروخين ؛ لتطهير المكان ، قبل هبوطهم فيه ؟!

انعقد حاجباها ، فى نفس الوقت الذى اتسعت فيه

عينا البروفيسير فى ارتياع ، وهو يقول :

ـ لابد وأن نخرج من هنا بأقصى سرعة .. لابد .

أشار (أدهم) إليه بيده ، قائلاً :

ـ سنفعل يا رجل .. سنفعل بإذن الله .. ولكننى سأتفقد باقى الممر أولاً .. انتظرانى هنا .

قالها ، واتجه نحو الصخور الأمامية ، فأشارت (جيهان) إلى البروفيسير ، وهى تسرع للحاق بـ (أدهم) ، قائلة :

ـ انتظرنا هنا يا بروفيسير ، وسوف ..

توقف (أدهم) بغتة ، والتفت إليها فى صرامة ، قائلاً :

ـ قلت : انتظرانى أيتها الرائد .

قالت فى عصبية :

ـ وما الذى يمنع ذهابنا معًا يا سيادة العميد ؟!

مال نحوها ، وتطلع إلى عينيها مباشرة ، وهو يقول فى صرامة أشد :

ـ إنه فى هذه الحالة ، لن يكون لدينا خط دفاع ثان أيتها الرائد .. ثم إن الأسلوب الذى تدربت عليه ، ونلت من أجله شرف العمل فى صفوف المخابرات المصرية ، يحتم عليك طاعة أوامر رؤسائك ، دون

أدنى مناقشة .. أليس كذلك ؟!

تطلّعت إلى عينيه لحظة فى صمت ، قبلَ أن تجيب فى برود ، وبلهجة رسمية جافة :

- بلى يا رئيسى المباشر ، ولكننى أتبع خطى سيادتك ، عندما تجاهلتم أوامر الرؤساء ، وسافرتم للثأر من فريق قتل ياباتى(*) .

التقى حاجباه فى غضب صارم ، إلا أنها أدت التحية العسكرية بشكل مبالغ ، ودارت على عقبيها ، كما يفعل الجنود النظاميون ، ثم قالت للبروفيسير فى حزم :

- هيا يا سيّدى البروفيسير .. سننفذ أوامر الرئيس المباشر .

وجذبت البروفيسير إلى المخبأ أسفل الصخرة ، وهو ينقل بصره بينهما فى دهشة ، ثم عادت تدور على عقبيها على نحو عسكرى ، وعقدت ساعديها أمام صدرها ، وهى تضمّ شفتيها وحاجبيها فى غضب ، فهزّ (أدهم) رأسه ، متمتمًا :

- يا للنساء !

(*) راجع قصة (اغتيال) .. المغامرة رقم (١١٠) .

ثم انطلق نحو الصخور الأمامية ، وراح يتسلّقها فى خفة وسرعة ، وابتسامة كبيرة تتكوّن فى أعماقه .

صحيح أنه يتعامل مع (جيهان) دائمًا بصرامة شديدة ، إلا أنه يشعر فى أعماقه بالكثير من الإعجاب تجاهها ..

ليس إعجاب الذكر بالأنثى ، وإنما إعجاب القائد بأحد جنوده المتألقين ..

إعجاب رجل مخابرات محنّك سابق ، بتلميذ يثبت نبوغه وتفوّقه فى كل مهمة جديدة ..

انتقلت ابتسامته بسرعة إلى شفتيه ، ووجد نفسه يكرّر بلهجة أقرب إلى المرح هذه المرة :

- يا للنساء !

لم يكد يتمّ عبارته ، وهو يبلغ قمة الصخور ، ويستقبل الرياح فى وجهه ، حتى تناهى إلى مسامعه بغتةً هدير مروحة الهليوكوبتر الكبيرة ، و ...

وفجأة ، برزت الهليوكوبتر من خلف أحد الجدارين الصخريين للممر ، وهى تنطلق نحوه مباشرة ..

وكان من الواضح أن قائدها قد رآه هذه المرة .. وبمنتهى الوضوح ..

* * *

٥ ـ مواجهة ..

شعر البروفيسير (بولانسكى) بصداع شديد يكتنف رأسه ، وهو يستعيد وعيه فى بطء ، داخل طائرة خاصة ، تحلّق به فوق المحيط الهادى ، ففتح عينيه فى صعوبة ، مغمغمًا :

ـ أين أنا ؟!

أتاه صوت خشن جاف من خلفه ، يقول :

ـ هل استعدت وعيك أخيرًا ؟!

التفت البروفيسير فى ذعر وانزعاج إلى مصدر الصوت ، وحدّق فى رجل قوى ، متين البنيان ، يجلس على المقعد الواسع خلفه مباشرة ، ويرمقه بنظرة صارمة قاسية ، جعلته ينكمش فى المقعد ، مكررًا :

ـ أين أنا ؟!

أطلّت ضحكة ساخرةً من عينى الرجل ، وهو يميل نحوه ، قائلاً :

ـ هل ترغب فى العودة إلى معتقل (سيبيريا) ؟!

صرخ البروفيسير :

ـ لا .. لا .. إننى أفضّل الموت على العودة إلى ذلك الجحيم .

ضاقت عينا الرجل ، وهو يسأله بلهجة مخيفة :

ـ حقًا ؟!

ارتجف جسد البروفيسير ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، وهو يقول :

ـ ما .. ماذا تعنى ؟!

تضاعفت تلك الضحكة الساخرة فى عينى الرجل ، وانتقل جزء منها إلى شفتيه ، وهو يميل نحوه أكثر ، ويتطلع إلى عينيه مباشرةً ، ويقول :

ـ هل تفضّل الموت حقًا ؟!

اتسعت عينا البروفيسير (بولانسكى) فى ارتياع ، وهو يقول :

ـ ماذا ستفعل بى ؟! إلى أين تأخذنى ؟!

لاذ الرجل بالصمت بضع لحظات ، بدت للبروفيسير أشبه بالدهر ، قبل أن يتراجع الرجل فى مقعده ببطء ، ويلوّح بيده ، قائلاً :

ـ أعتقد أنك أمام فرصة عمرك يا بروفيسير .

جاءت العبارة مباغتة تمامًا بالنسبة للبروفيسير ، فاتسعت عيناه فى دهشة بالغة ، وارتفع فى مقعده ، وهو يكرِّر :

- فرصة عمرى .

أجابه الرجل :

- بالتأكيد يا بروفيسير .. فرجل مثلك ، كان يواجه مصيرًا مظلمًا ، فى قبر ثلجى كذلك الذى انتزعناك منه فى (سيبيريا) ، يكون محظوظًا للغاية ، عندما يسند إليه عمل جاد ، بالغ الخطورة ، يعود به إلى مهاراته وخبراته السابقة ، فى الهندسة النووية .

حدَّق البروفيسير فى وجهه بشىء من الذهول ، قبل أن يهتف بلهفة شديدة :

- ما الذى تقصده يا رجل ؟! أخبرنى بالله عليك .. أريد كل التفاصيل .

ارتسمت ابتسامة ظافرة على شفتى الرجل ، وهو يقول :

- لا تتعجَّل الحصول على التفاصيل يا بروفيسير .. كل شىء سيأتى فى وقته بالضبط .

تهلَّلت أسارير البروفيسير (بولانسكى) ، وهمَّ بقول شىء ما ، إلا أنه لم يلبث أن عاود الانكماش فى مقعده بغتة ، وهو يغمغم :

- ولكن ... ولكنهم لن يسكتوا عن هذا .

سأله الرجل :

- ومن هؤلاء ؟!

أشار البروفيسير إشارة مبهمة بسَبابته ، وهو يتمتم فى ذعر ملحوظ ، وبصوت مرتجف للغاية :

- الكولونيل ورجاله .. أعنى أولئك فى الـ .... فى (سيبيريا) .

سأله الرجل ، بلهجة شبه ساخرة :

- وما الذى لن يسكتوا عنه ؟!

هزَّ البروفيسير كتفيه ، وازدرد لعابه فى صعوبة ، وارتبك بعض الوقت ، قبل أن يجيب بنفس الصوت المرتجف :

- فرارى من المعتقل .

هتف الرجل فى سخرية :

- فرارك ؟!

ثم انفجر ضاحكًا بشدة ، على نحو أدهش

البروفيسير، الذى ظلَ يحدِّق فيه ، حتى انتهى من ضحكاته ، فهتف به محنقًا :

ـ ما الذى يضحكك باللَّه عليك ؟!

عاد الرجل يميل نحوه ، ويتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً :

ـ لا أحد يغادر معتقل (سيبيريا) حيًا يا بروفيسير.

بدت دهشة عارمة على وجه البروفيسير (بولانسكى) ، وهو يقول :

ـ ولكننى على قيد الحياة بالفعل !

هزَّ الرجل رأسه نفيًا فى بطء ، قبل أن يجيب :

ـ ربما كان هذا صحيحًا فى عالم الواقع يا بروفيسير ، ولكنه ليس كذلك فى كل السجلات الرسمية ، وخصوصًا تلك التى يراجعها المسئولون فى (سيبيريا) .. فمن الناحية القانونية ، قمت أنت بتمرّد ، استوجب إعدامك ، ودفنك فى الثلوج ..

ظلّ البروفيسير مندهشًا مبهوتًا بضع لحظات ، قبل أن يشير إلى نفسه ، قائلاً بصوت مرتجف :

ـ إذن فأنا الآن .. أنا .. أنا ..

قاطعه الرجل :

ـ حر يا بروفيسير .. نعم .. أنت الآن حر تمامًا .. وليس هذا فحسب ، وإنما لم يعد لك أى وجود رسمى فى عالم الأحياء ، وهذا يعنى أن أحدًا لن يبحث عنك ، وأنك ستنعم طويلاً بحياتك الجديدة .

تألقت عينا البروفيسير ، وهو يعود للجلوس فى مقعده ، مردِّدًا :

ـ إذن فأنا حر .. حر .

ثم فجأة ، قفز إلى ذهنه سؤال جديد ، أعاد إليه معظم قلقه وتوتّره ..

ما طبيعة تلك الحياة الجديدة ، التى يتحدَّث عنها الرجل ؟!

وعندما ألقى هذا السؤال الجديد على الرجل ، لم يحصل منه على جواب قط ..

ولم يكن أمامه ، والحال هكذا ، سوى أن يجلس صامتًا فى مقعده ..

وأن يفكِّر ، ويبحث ، و ...

ويقلق ..

وبشدة ..

* * *

قاد (يورى أندروفيتش) الهليوكوبتر فى مهارة مدهشة ، عبر ممر (بيليجرو) ، على الرغم من الرياح القوية ، فى مرحلة انحسار العاصفة ، وعندما لمح الانهيارين الصخريين ، راح يدور حولهما لفترة ، حتى سأله (كوادروس) :

– هل تلمح شيئًا هنا أيها القائد ؟!

صمت الروسى بضع لحظات ، قبل أن يجيب بلهجته الجافة الباردة :

– من الواضح أن تلك المنطقة قد تعرَّضت للانهيارات الصخرية أكثر من غيرها .

سأله (كوادروس) ، وهو يمد بصره ، محاولاً إلقاء نظرة واسعة على المكان :

– وما الذى يعنيه هذا ؟!

مطَّ (أندروفيتش) شفتيه ، وغمغم :

– لا يعنى شيئًا .

ثم دار بالهليوكوبتر دورة أخيرة ، وانطلق مبتعدًا ، ليواصل فحص باقى الممر ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقه لم يشعر بالارتياح قط ..

هناك شىء ما فى منطقة الانهيارات ، لم يرق له قط ..

شىء رآه ، أو لمحه ..

أو حتى شعر به ..

المهم أن حاسته الخبيرة لم تهدأ أبدًا ، منذ ابتعد عن منطقة الانهيارات ..

لذا ، فقد عاد يدور بالهليوكوبتر ، قائلاً فى صرامة :

– سنعود إلى هناك ..

تبادل الرجال نظرة متوترة ، نقلتها عيونهم إلى (كوادروس) ، الذى حوَّلها إلى كلمات واضحة ، وهو يقول للروسى :

– لماذا أيها القائد ؟

أجابه (أندروفيتش) فى صرامة ، وهو ينطلق بالهليوكوبتر ، عائدًا إلى منطقة الانهيارات السابقة :

– لأننى أريد هذا !!

تبادل الرجال نظرة متوترة أخرى ، وانقبضت أصابعهم أكثر وأكثر على مدافعهم الآلية ، وتركوا قائدهم ينطلق بالهليوكوبتر ، و ...

وفجأة ، لمح (أندروفيتش) (أدهم) ، على قمة الصخور الأمامية ، فتألَّقت عيناه بشدة ، وتحفَّزت كل

خلية فى جسده ، وهو يهتف :
ـ ها هو ذا .
ومع هتافه ، ضغطت سبَّابته زر أحد المدافع الآلية .
وانطلقت الرصاصات فى غزارة نحو (أدهم) ..
وكرجل مخابرات سابق ، كان من السهل على (يورى أندروفيتش) أن يقود أية هليوكوبتر حربية ، وأن يصيب برصاصاتها فأرًا يعدو بين أعواد الذرة ..
ولكن الهليوكوبتر التى يقودها لم تكن حربية ..
والمدافع الآلية لم تكن متقنة ..
لذا ، فقد أخطأت رصاصاته كلها (أدهم) ..
والواقع أن هذا لم يكن السبب الوحيد للخطأ ، وإنما كان هناك سبب آخر أكثر قوة وأهمية ..
(أدهم صبرى) نفسه ..
ففى اللحظة التى لمح فيها بطلنا الهليوكوبتر ، وهى تندفع نحوه ، صاح بكل قوته :
ـ لا تغادرا مكمنكما .
تحركت (جيهان) فى دهشة عصبية ، قائلة :
ـ ولماذا ؟!

قبل حتى أن تكتمل كلمتها ، كانت رصاصات الهليوكوبتر تنطلق ..
وكان (أدهم) يثب فى خفة ، إلى الجانب الآخر للصخور ..
وعلى الرغم من إصاباته المؤلمة ، لم يكد (أدهم) يهبط على أرضية الممر ، حتى دفع جسده إلى الأمام ، وانطلق يعدو بكل قوته ..
واستدارت الهليوكوبتر ، لتنطلق خلفه ..
وفى ذعر ، هتفت (جيهان) ، وهى تعدو نحو الصخور :
ـ ماذا حدث ؟! أين ذهب (أدهم) ؟!
صاح بها البروفيسير (مانهايم) فى ذعر :
ـ إلى أين ؟! لقد طلب منا ألا تغادر مكمننا قط !
تجاهلته (جيهان) تمامًا ، وهى تواصل العدو نحو الصخور ، وقلبها يخفق فى عنف ، ولسانها يقول فى هلع :
ـ رباه ! ماذا أصابه ؟! ماذا أصابه ؟!
فى نفس اللحظة ، التى نطقت فيها كلماتها المذعورة ، كان (أدهم) يعدو بكل قوته ، عبر الممر



وعلى الرغم من إصاباته المؤلمة ، لم يكد (أدهم) يهبط على أرضية الممر ، حتى دفع جسده إلى الأمام ، وانطلق يعدو بكل قوته ..

الوعر ، و (أندروفيتش) ينطلق خلفه بالهليوكوبتر ، قائلاً فى غضب :

ــ اللعنـة ! أولئك الأوغـاد ، الذين استأجـرتهم يا (كوادروس) ، أفسدوا الأمر تمامًا .. المدافع الآلية غير مصوَّبة إلى الأهداف جيدًا .

كانت عبارتـه تنطلق ، وهو يضغط أزرار المدافع الآليةَ الأربعةَ فـى آن واحـد ، والرصاصـات تنهـال منهـا كـالمطر ، خلـف (أدهـم صـبرى) ، الـذى واصـل العـدو عـبر الممـر ، وهـو يتسـاءل فـى دهشة ، كيف لم ينجح مطاردوه فى إصابتـه ، حتى هذه اللحظة ؟!

لم يكن الممر سـهلاً أو ممهَّدًا ، ولكنـه لـم يخفض سرعته لحظة واحدة ..

كـان يثِـب عـبر كـل عقبـة تعـترض طريقـه ، أو يـدور حولهـا ، ويتجاوزهـا واحـدة بعـد الأخـرى ، مستعيدًا خبراتـه السـابقة ، أيـام عملـه فـى القـوات الخاصة(*) .

(*) راجع قصة (الخطوة الأولى) ... المغامرة رقم (٣١) .

خبرات حرب الاستنزاف ..(*) .
وحرب أكتوبر المجيدة ..(**) .
ولكنه فى أعماقه ، كان يعلم أن كل مقاومته هذه محدودة ، مهما بذل من جهد ..
صحيح أن الهليوكوبتر التى تطارده ليست حربية ، ومدافعها الآلية لم يتمَّ إعدادها على نحو جيد ، كما يبدو واضحًا ، إلا أن قائدها محترف حتمًا ، كما يشير أسلوب قيادته لها ، وهذا يعنى أنه لن يلبث أن يتبيَّن زاوية انحراف رصاصات المدفع الآلى ، ويعيد التصويب ، مع هامش الخطأ ، و ...

(*) حرب الاستنزاف : بعد نكسة عام ١٩٦٧ م ، بدأت (مصر) فى إعداد جيش قوى ، تمهيدًا لشن حرب ثأرية ، واسترداد الأرض السليبة ، من العدو الإسرائيلى ، وعندما اقتربت عملية الإعداد من نهايتها ، شنت (مصر) ما يطلق عليه اسم حرب الاستنزاف ، حيث راح جنودنا يعبرون إلى الضفة الشرقية ، ويشتبكون مع العدو فى قتالات محدودة ، ثم يعودون إلينا منتصرين.

(**) حرب أكتوبر المجيدة : فى السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣ م ، انطلقت الطائرات المصرية لتدك خط (بارليف) ، أقوى حصون العدو الإسرائيلى ، ومعها عبر جنودنا قناة (السويس) ، ليحققوا انتصارهم على الإسرائيليين ، فى آخر الحروب بيننا وبينهم .

وينسفه برصاصاتها نسفًا ..
ثم إن لديه ما هو أخطر من الرصاصات ..
الصاروخان الموجهان ..
والعجيب أنه فى نفس اللحظة ، التى انطلقت فيها هذه الفكرة الأخيرة ، فى رأس (أدهم) ، كان (أندروفيتش) يضغط زر أحد الصاروخين ، قائلاً :
- فليكن أيها الرفيق (أدهم).. الرصاصات أخطأتك ، ولكن الصاروخ لن يفعل حتمًا .
وبكل قوته ، ضغط الزر ..
وانطلق الصاروخ ..
وعلى الرغم من أنه لم يلتفت خلفه ، أو يتوقَّف عن العدو لحظة واحدة ، إلا أن (أدهم) قد شعر بانطلاق الصاروخ ، فى نفس اللحظة ، التى انفصل فيها عن الهليوكوبتر ..
أذنه التقطت صوت انطلاق محركه ، وميَّزته عن هدير الهليوكوبتر ، وأدرك أنه ينطلق نحوه مباشرة ..
وبكل قوته ، وبوثبة رائعة مدهشة ، تجاوز أربعة أمتار دفعة واحدة ، ليهبط خلف صخرة ضخمة ، من تلك الصخور ، التى سقطت وسط العاصفة ..

وفـى اللحظـة نفسـها تقريبًـا ، ارتطـم الصـاروخ بالأرض ..

وانفجر في عنف هائل ..

ومن المؤكد أنه أعنف مما تصوَّر (أدهم) بكثير .

ربمـا لأن الانفجـار حـدث داخـل ممـر جبلـى ، فانحصرت موجة الضغط الناشئة منه ، بين الجدارين الجبليين ، وانطلقت كلها عبر الممر بكل قوتها ، حتى إنها دفعت الصخرة الضخمة ، التى يختفى خلفها (أدهم) ، فتدحرجت نحوه ، وكادت تسحقه سحقًا ، مع ضغط هائل وقع على أذنيه ، اللتين كادتا تنفجران فى عنف ..

وبسرعة استجابته المعهودة ، وعلى الرغم من عنف الانفجار ، قفز (أدهم) بجسده كله إلى الخلف ، وسقط علـى ظهره ، والصخـرة تتدحـرج نحـوه ، وتحاصره بينها وبين الجدار الصخرى للممر ..

وفى أذنيه ، تردَّد دوى الانفجار عشرات المرات ، وبدا وكأنه قد انتقل إلى أعماق مخه نفسه ..

وفى سماء الممر ، ظهرت الهليوكوبتر أمام عينيه ، وهى تنقضّ عليه مرة أخرى فى شراسة ، وبداخلها

(أندروفيتش) يهتف فى حماس :

ـ ها هو ذا .. لقد ظفرنا به يا رجل .

حاول (أدهم) أن ينهض ، ويواصل العدو عبر الممر ..

ولكن كانت بانتظاره مفاجأة ..

لقد انحشرت قدمه اليسرى ، بين الصخرة الضخمة ، والجدار الصخرى ..

صحيح أنه يستطيع انتزاعها من مكانها هذا ، بشىء من العناية ..

ولكن من سيمنحه الوقت اللازم لهذا ؟!

لقد انقضّ (أندروفيتش) بالهليوكوبتر كنسر جارح ، وضغط أزار إطلاق مدافعه الرشاشة الأربعة فى آن واحد ، وهو يضبط زاوية التوجيه بمنتهى الدقة كمحترف ..

ولم يعد هناك مخرج لـ (أدهم صبرى) من هذا المأزق ..

أى مخرج ..

* * *

تثاءب عالم الذرة (دى مال) فى إرهاق شديد ، وهو يدلف إلى حجرة الاجتماعات الصغيرة ، داخل المفاعل النووى الخاص ، الذى أعدّته السنيورا ، فى قلب جبال (بوليفيا) ، وتطلع فى شىء من التوتر إلى زميليه (جولهى) و (استروتيسكى) ، اللذين احتلا مقعدين من مقاعد المائدة ، قائلاً :

- إذن فقد استيقظتما مبكرين أيضًا .

أشار إليه (استروتيسكى) ، وهو يقول :

- كلنا ننتظر السنيورا يا زميلى العزيز .. أظنها وجّهت الدعوة إليك أيضًا ؛ لحضور هذا الاجتماع المبكِّر .. أليس كذلك ؟!

أجابه (دى مال) فى عصبية ، وهو يجذب أحد مقاعد المائدة :

- الدعوة ؟! هل تخدع نفسك يا رجل ، أم أن هذا نوع من المزاح السخيف السمج ؟! السنيورا لا توجّه الدعوات لأحد ، ولكنها تصدر الأوامر للجميع ، ولا تتوقع الرفض مطلقًا .

تنهّد (جولهى) ، ورفع عينيه إلى زميله ، قائلاً :

- وهل يصنع هذا فارقًا ؟!

هزّ (دى مال) رأسه نفيًا ، وهو يلقى جسده على المقعد ، قائلاً :

- كلاً .. للأسف ..

تنهّد (جولهى) ثانية ، وقال :

- فلنتجاهل الأمر إذن .

عضّ (دى مال) شفته السفلى فى قهر ، وهو يغمغم :

- نعم .. أنت على حق .. مناقشة الأمرعمل عقيم ، فنحن هنا بالفعل ، وليس أمامنا سوى طاعة أوامر السنيورا ، دون أدنى مناقشة .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع صوت السنيورا فى المكان ، وهى تقول فى صرامة مخيفة :

- قرار حكيم يا دكتور (دى مال) .

استدار الثلاثة إليها فى انزعاج مذعور ، وهبّ (استروتيسكى) واقفًا ، وهو يقول بصوت مرتجف :

- صـ .. صباح الخير يا سنيورا .

كانت تقف بالباب ، فاتنة كزهور الربيع ، متألقة كشمس الصباح ، ساحرة ، جذّابة ، و ...

ومخيفة ..

لا أحد يدرى كيف تجمع بين كل هذه الصفات فى آن واحد !!

كيف يمكن أن تكون فاتنة ومخيفة ؟!

رقيقة وشرسة ..

ناعمة وقاسية ..

كيف ؟!

لقد وقفت بالباب ، تنفث دخان سيجارتها فى بطء ، وتدير عينيها الجميلتين فى وجوههم فى صرامة قاسية مخيفة ، جعلت قلب (دى مال) يرتجف بين ضلوعه ، وهو يقول فى ارتباك شديد :

ـ معذرة يا سنيورا .. إننى لم أقصد أن ...

قاطعته فى صرامة ، وهى تدلف إلى حجرة الاجتماعات فى بطء مخيف :

ـ لا تعتذر يا دكتور (دى مال) .. كلماتك كانت صحيحة تمامًا .

واتخذت مقعدها على رأس المائدة ، وأدارت عينيها فى وجوههم ، قبل أن تتابع فى صرامة أكثر :

ـ أنتم بالفعل هنا ، وليس أمامكم سوى طاعة أوامرى ، دون أدنى مناقشة .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة متوترة ، ولكنها تابعت بسرعة :

ـ ولكن هذا لا يعنى أنكم أسرى .

بدت الدهشة على وجوههم ، ولكن أحدهم لم ينبس ببنت شفة ، فاستطردت :

ـ يمكنكم اعتبار أنفسكم أعضاء فى شركة عالمية جديدة ، شركة تسعى لفرض سيطرتها على العالم أجمع ، وامتلاك ناصيته العسكرية والاقتصادية ، وأن نجاح شركة كهذه ، يعنى نجاحكم أيضًا ، ووضعكم على قمة العالم .

تضاعفت دهشتهم ، وتبادلوا نظرة أخرى أكثر توترًا ، قبل أن يستجمع (استروتيسكى) شجاعته ، ويقول :

ـ سنيورا .. هل يمكنك أن توضحى لنا الأمر أكثر؟!

ارتسمت على شفتيها ابتسامة عجيبة ، وهى تقول :

ـ بالتأكيد ..

ثم التقطت نفسًا عميقًا آخر من سيجارتها ، قبل أن تقول فى هدوء :

ـ افتحوا أعينكم جيدًا أيها السادة ، وستدركون أننا

على أعتاب قرن جديد ، يقترب منا فاتحًا ذراعيه ، وواعدًا بثورة اقتصادية هائلة ، وتطورات عسكرية بلا حدود .. قرن إما أن نلحق به ، أو نهوى فى أعماق التخلف الحضارى إلى الأبد .. واللحاق بعصر كهذا لا يحتاج إلى المال والتكنولوجيا وحدهما ، وإنما إلى القوة أيضًا ... القوة التى تمنحك حق السيطرة وإصدار القرار ، وتوجيه المسار الاقتصادى إلى الطريق ، الذى يخدم مصالحك وحدها ، ويحقق لك ثروات رهيبة هائلة ، لا يمكن لأحد مجرَّد تخيّلها .

واسترخت فى مقعدها بابتسامة متلذِّذة ، وهى تدير عينيها فى وجوههم ، وكأنما تستمتع بقراءة تأثير كلماتها عليهم ، قبل أن تتابع :

- ولأننا نسعى للفوز بالغنيمة كلها ، فقد قررنا إعداد كل ما يمكن إعداده ، للسيطرة على القرن القادم ، وفرض نفوذنا الاقتصادى والعسكرى عليه ، وبناء عرشنا على قمته ، منذ اليوم الأوَّل من أيامه .

تنهَّد (دى مال) فى توتر شديد ، ولوَّح بكفه ، قائلاً :

- سنيورا .. ما شأننا بهذه المقدِّمة الفلسفية بالضبط ؟!

تطلَّعت إليه السنيورا لحظة بنظرة ساحرة ، ثم لم تلبث أن انفجرت ضاحكة ، وراحت تقهقه بصوت مرتفع ، على نحو جعل الرجال الثلاثة ينكمشون فى مقاعدهم ، ويتبادلون نظرات خائفة مقهورة ، حتى انتهت ضحكات السنيورا ، وقالت :

- يا له من سؤال ! أتسألنى ما شأنكم بهذه المقدِّمة الفلسفية يا دكتور (دى مال) ؟! إنكم جزء منها يا رجل .. بل الجزء الأساسى فيها ، وإلا فما نوع القوة التى نتحدَّث عنها إذن ؟!

سألها (استروتيسكى) مبهورًا :

- هل تصنعين القنابل الذرية ؛ للسيطرة على اقتصاد العالم ؟!

ضربت سطح المائدة بقبضتها ، هاتفة :

- بالتأكيد .

ثم جذبت نفسًا آخر من سيجارتها ، متابعة فى حماس :

- فى عصرنا هذا ، لم يعد هناك فارق كبير ، بين السيطرة الاقتصادية والعسكرية .. بل إن الدول الكبرى تستعمر الدول الأصغر عن طريق السيطرة

الاقتصادية ، التى تثمر الكثير من المكاسب والأرباح ، على عكس السيطرة العسكرية ، التى تستفز الشعوب ، وتستنفز حماسها وغضبها ، وتحصد الخسائر المالية والبشرية بلا حدود .. ومن هذا المنطلق ، أدركنا أن الوسيلة المثلى للسيطرة على اقتصاد العالم ، هى إرهابه بضربات عسكرية عنيفة ، وغير متوقعة ..

تمتم (دى مال) :

- بالقنابل الذرية ؟!

أدارت عينيها إليه فى بطء ، وأجابت فى حزم :

- بالضبط .

ثم مالت نحوه ، مستطردة :

- ولكن لا تجعل هذا يقلقك كثيرًا ، فالقنابل الذرية ، التى سيتمّ إنتاجها هنا ، ستكون مجرّد مخزون استراتيجى ليس أكثر ، وكل ما نحتاج إليه لإثبات قوتنا ، هو قنبلة واحدة ، أو قنبلتان على أقصى تقدير .

قال (دى مال) فى توتر :

- هل تعلمين كم من البشر سيلقون حتفهم ، من جراء إلقاء قنبلتين ذريتين ؟!

رفعت أحد حاجبيها ، قائلة :

- وماذا لو أخبرتك أن شخصًا واحدًا لن يلقى حتفه ، بسبب قنبلتنا الذرية ؟!

قال فى عصبية :

- مستحيل !

أجابته بسرعة :

- بل هو أمر طبيعى يا دكتور (دى مال) .. كل الدول تجرى تجاربها النووية ، دون أن تقتل أحدًا ، فهى تجريها فى قلب المحيطات ، أو فى أعماق الصحارى(*) وهذا ما سنفعله بالضبط .

انعقد حاجبا (دى مال) ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فتراجعت السنيورا ، وعيناها الجميلتان تحملان نظرة ظافرة ، وهى تديرهما فى وجوه الجميع ، متابعةً :

- ومن المؤكّد أن تعاونكم معنا لن يتمّ بلا مقابل .

بدت اللهفة فى عينى (استروتيسكى) ، وهو يسأل :

- حقًا يا سنيورا .. حقًا ؟!

(*) حقيقة .

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت فى بطء مثير :

ـ عندما يتحقق لنا النصر ، ونسيطر على العالم عسكريًا واقتصاديًا ، سيحصل كل منكم على ...

وصمتت لحظات ؛ لتشاهد اللهفة فى عيونهم ، قبل أن تكمل :

ـ على عشرين مليونًا من الدولارات .

شهق (استروتيسكى) فى قوة ، واتسعت عينا (جولهى) فى شدة ، فى حين انعقد حاجبا (دى مال) ، وهو يغمغم :

ـ عشرون مليونًا دفعة واحدة ؟!

ابتسمت السنيورا ، وأجابته :

ـ عدًا ونقدًا يا دكتور (دى مال) .

ازداد انعقاد حاجبى عالم الذرة الفرنسى ، فى حين هبَّ (استروتيسكى) يصافحها فى حرارة ، قائلاً :

ـ اعتبرينى أحد رجالك يا سنيورا .

وتبعه (جولهى) فى حماس :

ـ وأنا رهن إشارتك .

أما (دى مال) فتمتم فى خفوت :

ـ ليس أمامى سوى القبول يا سنيورا ، ولكن ..

اعتدلت فى مقعدها ، لتسأله فى توتر :

ـ ولكن ماذا ؟!

أشار بيده إشارة عصبية ، قائلاً :

ـ ما زال ينقصنا خبير الهندسة النووية .

تألَّقت عيناها ، وهى تعود إلى جلستها المسترخية ، وتنفث دخان سيجارتها ، قائلة :

ـ اطمئن يا (دى مال) .. خبير الهندسة النووية فى طريقه إلى هنا .

وتراقصت على شفتيها ابتسامة عابثة مزهوة ، وهى تتابع :

ـ وسنبدأ فى إنتاج قنابلنا النووية بعد خمس ساعات بالضبط .

قالتها وتألَّقت عيناها أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

فجأة ، انطلقت ثلاث رصاصات نحو الهليوكوبتر ..

كان (أندروفيتش) قد صوَّب مدافعها الآلية الأربعة نحو (أدهم صبرى) ، الذى يجاهد لانتزاع

قدمه من بين الصخرة الضخمة وجدار الممر ، وراعى زاوية الخطأ هذه المرة ، بحيث يضمن إصابته مباشرة ، و ...

وانطلقت تلك الرصاصات الثلاث ..

انطلقت كلها نحو مروحة الهليوكوبتر الخلفية ، وأصابتها برنين مرتفع ، وعلى نحو اختلّ معه توازن الهليوكوبتر لحظة ، انطلقت خلالها رصاصات مدافعها الأربعة ، بزاوية جعلتها تنطلق كلها نحو جدار الممر الصخرى ، وليس نحو (أدهم) ، الذى هتف فى انزعاج :

ـ رباه !.. (جيهان) المجنونة كشفت موقعها .

أما (أندروفيتش) ، فقد صرخ فى غضب :

ـ اللعنة !.. من فعل هذا ؟!

لم ينتظر رجاله ليجيبوا سؤاله ، وإنما هبّوا يطلقون رصاصات مدافعهم الآلية نحو (جيهان) ، التى تقف على قمة الصخور الأمامية ..

وقبل أن تثب (جيهان) من مكانها ، اخترقت رصاصة من رصاصات المدافع الآلية كتفها الأيسر ، وانتزعتها من مكانها ، لتلقى بها عند قدمى

البروفيسير (ماتهايم) الذى صرخ فى ارتياع ، وهو يعدو فى كل مكان بلا هدف :

ـ لقد كشفوا وجودنا .. كشفوا وجودنا .

وفى الهليوكوبتر ، هتف (كوادروس) :

ـ إنها زميلته اللعينة .. دعنا نعد لنسحقها سحقًا أيها القائد .

زمجر الروسى فى غضب ، وهو يراقب (أدهم) ، الذى انتزع قدمه من بين الصخرة والجدار ، وعاد يعدو عبر الممر ، وهتف محنقًا :

ـ فيما بعد .. سنقضى عليها فيما بعد .. المهم أن نظفر بذلك الرجل أولًا .

انطلق بالهليوكوبتر مرة أخرى خلف (أدهم) ، الذى لهث فى شدة ، مع آلام إصابة فخذه وصدره ، وهو يغمغم :

ـ عظيم .. لقد حدث ما توقّعته ، وفضّلوا مطاردتى ، بدلًا من العودة لقتل (جيهان) .

لم يكن يدرى أين يمكنه الذهاب هذه المرة ، فقد بدا له ذلك الجزء من الممر أكثر انبساطًا ، لا يعانى انهيارات صخرية ، أو بروزات يمكن الاحتماء خلفها .

فقط شجيرات صغيرة ، نمت من قلب الصخور ، وتناثرت فى كل مكان تقريبًا ..

والهليوكوبتر تطارده فى إصرار وشراسة ..

ونيرانها تنطلق خلفه مرة أخرى ..

وفى حماس ، هتف (كوادروس) داخل الهليوكوبتر :

ـ الصاروخ الثانى .. أطلق نحوه الصاروخ الثانى أيها القائد .

انعقد حاجبا (أندروفيتش) ، وهو ينخفض بالهليوكوبتر ، قائلاً :

ـ أوَّل اقتراح ذكى يا (كوادروس) .

كان (أدهم) يجرى بأقصى قوته ، نحو منحنى حاد من منحنيات الممر ، فاندفع الروسى بالهليوكوبتر خلفه ، وهو يضع سبَّابته على زر إطلاق الصاروخ ، مغمغمًا :

ـ وداعًا أيها الأسطورة .

ودار خلف (أدهم) فى المنحنى ، وضغط زر إطلاق الصاروخ ..

وبكل قوته .

* * *

٦ ـ رائحة الموت ..

أطلَّت سعادة عارمة ، من كل خلجة من خلجات والدة (منى) ، وهى تفرغ حقيبة هذه الأخيرة فى منزلها ، قائلة :

ـ حمدًا للَّه على سلامتك يا بنيتى .. كم نحن سعيدان لعودتك إلى المنزل .. هل رأيت كم بكى والدك ؟!

غمغمت (منى) :

ـ إنه يشعر بالعجز ؛ لأن مرضه كان يمنعه من زيارتى بالمستشفى .

تنهَّدت أمها ، قائلة :

ـ ويمنعنى من هذا أيضًا يا عزيزتى .

ثم احتوتها بين ذراعيها ، وطبعت على وجنتها قبلة حانية ، مستطردة :

ـ ولكنك عدت إلينا الآن ، ولن نفترق مرة ثانية أبدًا .

ابتسمت (منى) فى شرود ، جعل أمها تتطلَّع إليها فى حيرة ، ثم تسألها فى تردُّد :

- هل قابلت (عماد) ؟

التفتت إليها (منى) بنفس الشرود ، قبل أن تقول فى توتر :

- نعم .. قابلته يا أمى .

بدا شىء من الارتياح على وجه الأم ، وهى تقول :

- إنه يحبك كثيرًا ، و ...

انعقد حاجبا (منى) ، وهى تقاطعها فى ضيق :

- أمى .. لا داعى لمناقشة هذا الأمر الآن .

قالت أمها فى حيرة :

- ولِمَ لا ؟! لقد شفيت والحمد لله ، والعمر يمضى بك ، وزميلك (أدهم) هذا لن ..

قاطعتها فى عصبية هذه المرة :

- ليس الآن يا أمى .. ليس الآن بالله عليك .

ثم هزت رأسها فى قوة ، مضيفة :

- ثم إننى لم أشف تمامًا بعد .. كل ما فى الأمر أن تلك الفترة من العلاج لم تعد تستلزم البقاء فى المستشفى ..

قالت الأم فى صبر :

- (عماد) يمكنه أن ينتظر .

قالت فى حدة :

- فلينتظر إذن .. هذا شأنه .

قالتها ، وهى تلتقط سماعة الهاتف بحركة عنيفة ، فسألتها أمها فى قلق :

- من ستحدثين ؟!

أجابتها فى توتر :

- الإدارة .

سألتها فى دهشة :

- هل عدت للعمل ؟!

أجابتها (منى) فى ضيق واضح :

- ليس بعد .. إننى أتحدث إلى (قدرى) فحسب .

تضاعفت دهشة أمها ، وهى تقول :

- (قدرى) ؟! ألم يوصلك إلى هنا منذ قليل ؟

لم تجب (منى) هذه المرة ، لأنها لم تكد تسمع صوت (قدرى) ، حتى نسيت كل ما حولها ، وسألته فى لهفة :

- هل من أخبار جديدة ؟!

أجابها فى ضيق واضح :

- كلا ، ولكن المراقبين هناك يؤكدون أن كل الظواهر لا تبشر بالخير .

شحب وجهها ، وهى تقول :
- يا إلهى !.. (أدهم) .
حمل صوت (قدرى) إليها رغبته فى البكاء ، وهو يقول :
- لست أدرى ماذا أفعل ؟ من الواضح أن الأمور شديدة الخطورة هناك ، والكل هنا متوتر للغاية ، ولكن أحدًا لا يُفصح عن أى شىء .
صمتت (منى) بضع لحظات ، وعقلها يعمل بسرعة مدهشة ، قبل أن تقول فى حزم :
- اسمعنى جيدًا يا (قدرى) ، فلدى فكرة مجنونة .
غمغم فى توتر :
- كلى آذان مصغية .
وخفق قلب الأم فى ذعر وانزعاج ، عندما راحت (منى) تروى ما لديها لـ (قدرى) ..
فقد كانت فكرتها بالفعل مجنونة ..
للغاية ..

★ ★ ★

كل شىء كان ملائمًا تمامًا لقتل (أدهم صبرى) .. الهليوكوبتر تطارده فى شراسة ، والصاروخ

مصوَّب إليه بدقة ، و (أندروفيتش) لا يمكن أن يخطئ الهدف ، من هذه المسافة القصيرة ..
وحتى لو فعل ، فإن انفجار الصاروخ داخل الممر ، كان كفيلاً بقتل (أدهم صبرى) ، وسحقه سحقًا ، حتى ولو انفجر على مسافة مائة متر منه ..
ولقد ضغط الروسى زر إطلاق الصاروخ بالفعل ..
وبكل قوته ..
ولكن عاملاً واحدًا أفسد كل هذا الترتيب المنطقى ..
أن الصاروخ لم ينطلق ..
لقد ضغط (أندروفيتش) الزر ..
وضغط ..
وضغط ..
ولكن الصاروخ المتبقى فى الهليوكوبتر لم ينطلق قط ..
وبكل الغضب والثورة ، حطَّم (أندروفيتش) ذلك الغطاء الجليدى المحيط به ، وهو يصرخ :
- لا .. اللعنة !.. اللعنة !
فى اللحظة نفسها ، كان (أدهم) يدور فى ذلك المنحنى الحاد للممر ، وهو يسأل نفسه لاهثًا :

ـ عجبًا !.. لماذا لم يطلق هؤلاء الأوغاد صاروخهم الثانى ، ولماذا لم ..

توقَّف بغتةً بحركةٍ حادة ، على نحوٍ كاد يفقده توازنه ، وهو يحدِّق فى آخر شىء يتوقَّع وجوده ، فى مثل هذا المكان ..

آلةٌ ضخمة من آلات الحفر ، تقف مستقرة إلى جانب أحد الجدارين الصخريين للممر ، دون أن يكون إلى جوارها أحد ..

الهليوكوبتر أيضًا فوجئت بتلك الآلة الضخمة أمامها ، وهى تدور فى المنحنى ، فصرخ (كوادروس) فى ارتياع :

ـ احترس أيها القائد .

جذب (أندروفيتش) عصا القيادة بكل قوته ، فارتفعت الهليوكوبتر فى سرعة ، وتفادى الروسى ارتطام مروحتها بجدار الممر فى مهارة مدهشة ، وهو يغمغم :

ـ اللعنة !

أما (أدهم) ، فلم يضع وقتًا طويلاً فى التفكير ، وإنما وثب داخل الآلة ، وهو يغمغم :



توقَّف بغتة بحركة حادة ، على نحوٍ كاد يفقده توازنه ، وهو يحدِّق فى آخر شىء يتوقَّع وجوده ..

ـ لن أسأل نفسى ما الذى أتى بك هنا ، ولكن المؤكد أنك صاحبة الضوء الساطع والهدير القوى ، التى كدت تسحقيننا بالصخور المتساقطة ، منذ بضع ساعات ، ولكننا سنتناسى كل الأحقاد القديمة ، ونبدأ عهدًا جديدًا معًا ..

أدار محركها ، فى نفس اللحظة ، التى عادت فيها الهليوكوبتر إليه ، وضغط الروسى أزرار مدافعها الآلية الأربعة ، وهو يقول :

ـ لن أخطئ الهدف هذه المرة أيها المصرى .

انطلقت رصاصات المدافع الآلية الأربعة ، لتضرب جسم الآلة الضخمة ، وانحنى (أدهم) متفاديًا سيل الرصاصات ، الذى اخترق الزجاج الأمامى ، وحوله إلى فتات ، ودفع ذراع تشغيل الآلة ، قائلاً :

ـ عفوًا أيها الأوغاد ، ولكن رصاصاتكم لن تخترق هذه المدرعة قط .

كان (أندروفيتش) يطلق نيران مدافعه الآلية الأربعة فى غزارة ، نحو آلة الحفر الفولاذية العملاقة ، التى ينطلق بها (أدهم) ، عائدًا إلى حيث ترك (جيهان) والبروفيسير (مانهايم) ، فى محاولة

لإنقاذهما ، فى حين انهمك (كوادروس) فى محاولة إصلاح زر إطلاق الصاروخ ..

وفى حماس ، هتف (كوادروس) ، وهو يعتدل فى مجلسه :

ـ أصلحته أيها القائد .

تألقت عينا الروسى ، وهو يقول :

ـ عظيم .

قالها ، ودار بالهليوكوبتر دورة جديدة ، ثم انقض على آلة الحفر ، هاتفًا :

ـ إلى الجحيم يا (أدهم صبرى) .

وضغط زر إطلاق الصاروخ فى قوة ..

وفى هذه المرة ، انطلق الصاروخ بالفعل ..

انطلق نحو آلة الحفر ، التى يقودها (أدهم صبرى) بأقصى سرعتها ..

وأصاب هدفه ، و ...

وانفجر ..

وكان الانفجار داخل الممر أشبه بجحيم ..

جحيم حقيقى ..

★ ★ ★

انطلقت زفرة حارة من أعمق أعماق صدر المفتش (باندرياس) ، وهو يتهالك على مقعده ، مغمغمًا فى إرهاق :

- يا لها من ليلة !

هزَّ زميله رأسه ، وهو يجاهد ليبقى عينيه مفتوحتين ، وقال ملوِّحًا بكفه :

- أظنها أعنف ليلة قضيناها هنا ، منذ التحقنا بالعمل فى الشرطة يا رجل .

وافقه (باندرياس) بإيماءة من رأسه ، وقال :

- كم تمنيت أن أقضى تلك الليلة بالذات مع أسرتى .. من المؤكد أن الفزع قد أصابهم طوال الليل ، بسبب تلك العاصفة الرهيبة .

حاول زميله أن يبتسم مجاملاً ، وهو يقول :

- تضحية جديدة فى سبيل الواجب يا زميلى .

ثم أغلق عينيه ، مستطردًا :

- أما الآن ، وقد هدأت العاصفة كثيرًا ، فأظن أنه من حقنا أن نحصل على قدر من النوم والراحة .

شعر (باندرياس) بتثاقل جفنيه ، وهو يتمتم :

- بالتأكيد .

استرخى زميله فى مقعده ، وبدا وكأنه يغرق بالفعل فى بحر النوم العميق ، فى حين راح هو يقاوم النعاس ، متابعًا :

- كم أتوق إلى الراحة ، و ...

وفجأة ، صرخت عبارة ما فى أعماقه ، وقفزت فى عنف إلى رأسه ، وجعلت جسده كله ينتفض ، وهى تنطلق من بين شفتيه فى قوة :

- لا .. لا وقت للنوم .

اعتدل زميله منزعجًا ، وهو يسأله فى عصبية :

- ماذا أصابك يا رجل ؟! هل انتابتك الكوابيس ، قبل حتى أن تُغلق عينيك وتستسلم للنوم ؟!

هبَّ (باندرياس) من مقعده ، قائلاً فى حزم :

- لا وقت للنوم يا رجل .. لقد هدأت العاصفة نسبيًّا ، وحان وقت العمل .

هتف زميله مستنكرًا :

- العمل ؟! أى عمل يا رجل ، بعد كل ما فعلناه طوال الليل ؟!

أجابه المفتش فى صرامة :

- العمل الحقيقى .

ثم ضغط جهاز الاتصال الداخلى ، وهو يقول فى حزم :

- (ماركو) ... أريد حملة من ثلاث سيارات وعشرة جنود على الأقل .. نعم .. سأقودها بنفسى .. لا .. لا تسأل عن وجهتها يا (ماركو) .. انتظر حتى نصل إليها معًا .

وأنهى الاتصال فى حماس ، وهو يلتقط سترته ، أمام عينى زميله ، الذى أخذته الدهشة ، وجعلته يقول فى عصبية :

- أية حملة يا (باندرياس) ؟! إن ما تحتاج إليه حقًا يا رجل هو النوم .. والنوم العميق .

أجابه (باندرياس) ، وهو يرتدى سترته على عجل :

- من الواضح أن متاعب الليلة الماضية قد أنستك أمر خصمنا ، الذى اقتحم ممر (بيليجرو) أمس ، على الرغم من أنفنا .

قال زميله فى انفعال :

- ليس لديك دليل واحد على أنه قد اتخذ ممر (بيليجرو) ، ثم إن المعلومات التى حصلنا عليها

بشأنه أمس ، تجعلنا غير مؤهلين للتصدى له .

ارتسمت ابتسامة غامضة على شفتى (باندرياس) ، وهو يعقد رباط عنقه ، قائلاً :

- من يدرى ؟!.. ربما ؟!

حدّق زميله فى وجهه بدهشة ، ثم لم يلبث أن قال فى حدة :

- ماذا تعنى يا رجل ؟! لست أفهمك !

اتسعت ابتسامة (باندرياس) ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً:

- ربما لأن وقت الفهم لم يحن بعد يا رجل .

قالها ، وغادر المكتب فى خفة ، وابتسامته تزداد غموضًا .. وعلى نحو مستفز ..

★ ★ ★

شعرت (جيهان) بآلام عنيفة فى كتفها ، عندما اخترقته رصاصة المدفع الآلى ، وانتزعتها من مكانها أعلى الصخور ، لتلقى بها على الأرض فى عنف ..

ومع ارتطامها بالأرض ، انتشرت الآلام فى كل عظمة من عظامها ، فى نفس اللحظة التى راح البروفيسير (مانهايم) يجرى فيها فى المكان مذعورًا ، وهو يصرخ ويصرخ ..

وعلى الرغم من آلامها وعذابها ، هبَّت (جيهان) واقفة على قدميها ، وهى تهتف :

- لا .. لا ينبغى أن يظفروا بـ (أدهم) .. لا ينبغى أبدًا .

وقبضت على مسدسها بكل قوتها ، على الرغم من أنه لم يعد يحوى سوى رصاصة واحدة ، وعادت تتسلق الصخور فى لهفة ، والبروفيسير يهتف بها مذعورًا :

- إلى أين أيتها المجنونة ؟! سيظفرون بك حتمًا .

صاحت به فى غضب صارم :

- اصمت يا رجل .. اصمت وإلا أطلقت الرصاصة المتبقية على رأسك .

أطبق البروفيسير شفتيه ، وهو ينكمش فى مكمنه ، ويراقبها بخوف شديد ، فى حين واصلت هى تسلقها الصعب ، متجاهلة آلام كتفها ، حتى بلغت القمة ، ورأت الهليوكوبتر من بعيد ، وهى تنقضّ على آلة الحفر الضخمة ، التى ينطلق بها (أدهم) ، عائدًا إليها ..

ثم رأت الصاروخ ينطلق من الهليوكوبتر ..

وبكل انفعالها ، صرخت (جيهان) :

- لا .. لا ..

ومع نهاية صرختها ، رأت الصاروخ يصيب مؤخرة آلة الحفر ، ثم ينفجر بدوى هائل ..

وعلى الرغم من المسافة الكبيرة ، التى تفصلها عن موقع الانفجار ، والتى تزيد على مائة متر كاملة ، إلا أنها شعرت بضغطه وحرارته ، ورأت آلة الحفر تثب على نحو مخيف ، ثم ترتطم بجدار الممر ، وتسقط على جانبها على أرضيته ..

وسقط قلبها بين قدميها ، وهى تصرخ :

- أيها الأوغاد .. أيها الأوغاد .

ودون أن تدرى ، وجدت نفسها تطلق رصاصتها الأخيرة نحو الهليوكوبتر ..

والعجيب أن رصاصتها الغاضبة هذه قد وجدت طريقها ، وبمنتهى الدقة ، إلى أحد رجال السنيورا داخل الهليوكوبتر ، واخترقت جمجمته ، وهو يطلق ضحكته الظافرة ، احتفاءً بنسف آلة الحفر ، فاختنقت ضحكته فى حلقه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهوى من الهليوكوبتر ، ليرتطم بأرضية الممر فى

عنف ، وإلى جواره مدفعه الآلى ..
وصرخ (كوادروس) غاضبًا :
- اللعنة .. تلك اللعينة قتلت (ميلو) .
تعلقت عينا (أندروفيتش) لحظة بآلة الحفر ، التى انقلبت وسط الممر ، واشتعلت فيها النيران ، ثم قال فى حزم :
- ستدفع الثمن غاليًا .
قالها ، ودار بالهليوكوبتر ، وانطلق بها نحو الصخور ، التى تقف عندها (جيهان) ، وضاقت عيناه على نحو عجيب ، وهو يتمتم :
- هيا .. الحقى بزميلك أيتها المصرية .
وضغط زر إطلاق المدافع الآلية الأربعة ، فى آن واحد ..
وانطلقت الرصاصات كالمطر ..
ووثبت (جيهان) من موضعها ، وهى تهتف :
- رباه !.. لقد انفتحت أبواب الجحيم .
صرخ البروفيسير (مانهايم) ، وهو يلتصق بالصخور ، ويرتجف كريشة فى مهب الريح :
- أنت المسئولة .. أنت أثرت غضبهم .

صاحت (جيهان) ، وهى تندفع نحوه :
- كفى يا بروفيسير .. لا موضع لجبنك هنا .
برزت الهليوكوبتر فى نفس اللحظة ، التى احتمت فيها بصخرة بارزة ، وانطلقت رصاصاتها حولهما فى غزارة ، جعلت البروفيسير يصرخ :
- لا .. لا أريد أن أموت .
صاحت به (جيهان) :
- اطمئن أيها الجبان .. لا أحد منهم سيحاول قتلك .. إنهم يريدونك حيًّا .
اتسعت عيناه فى شدة ، وكأنما انتبه إلى هذه الحقيقة لأول مرة ، وهتف :
- آه .. أنت على حق .. لا أحد منهم سيحاول قتلى .. أنا بطاقتهم الرابحة .
واندفع محاولاً بلوغ الهليوكوبتر ، وهو يلوح بذراعيه ، هاتفًا :
- لا تطلقوا النار .. إنه أنا .. البروفيسير (مانهايم) .. لا تطلقوا النار .
جذبته (جيهان) إليها فى عنف ، صائحة :
- هل جننت يا رجل ؟!

قاومها فى عنف ، وهو يصرخ :

ـ اتركينى .. لن يطلقوا علىَّ النار .. إنهم يريدونك أنت لا أنا .

صاحت به :

ـ ومن أدراك أنهم لن ينسفوك ، قبل حتى أن يتبيَّنوا هويتك ؟!

صرخ فيها ، وهو يواصل مقاومته العنيفة :

ـ ينسفوننى ؟! يبدو أن الانفعال قد أفسد حاسة السمع لديك تمامًا .. ألم تنتبهى إلى أنهم قد أوقفوا إطلاق النار بالفعل .

انعقد حاجباها فى شدة ، عندما استوعبت عبارته ، وانتبهت بالفعل إلى أن إطلاق النار من الهليوكوبتر قد توقَّف تمامًا ، فمالت برأسها لتلقى نظرة ، جعلت عيناه تتسعان ، وجسدها يرتجف كله ، من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ..

لقد هبطت الهليوكوبتر بالفعل على أرضية الممر ، بين الانهيارين الصخريين ، وقفز منها (أندروفيتش) ، مع كل رجال السنيورا بمدافعهم الآلية ..

وهذا يعنى أن الاختباء خلف تلك الصخرة البارزة لم يعد مجديًا ..

أبدًا ..

★ ★ ★

لثوان طويلة ، شعرت كل خلية فى جسد (جيهان) ، أن النهاية آتية لا ريب ..

إنها تواجه فرقة من الرجال المسلحين بالمدافع الآلية ، داخل مصيدة بين جدارين جبليين ، وانهيارين صخريين ..

والأدهى أنها لا تملك سوى مسدس فارغ ، و ...

ولكن مهلاً ..

إنها تعلم أن مسدسها فارغ ؛ لأنها أطلقت كل رصاصاته ..

ولكن هؤلاء الرجال لا يعلمون ..

ثم إنهم يريدون البروفيسير (مانهايم) ..

وبشدة ..

وهذا يعنى أن أمامها فرصة للنجاة ..

فرصةً واحدة فحسب ..

كان البروفيسير (مانهايم) يواصل صراعه معها ،

وهو يهتف فى عنف :
ـ اتركينى .. لاحق لك فى احتجازى على هذا النحو .. اتركينى .
وفى حركة سريعة ، لوت ذراعه خلف ظهره ، وألصقت فوهة مسدسها الفارغ بصدغه ، قائلة فى سخرية :
ـ أتركك ؟! مستحيل يا بروفيسير !! أنت جواز مرورى الوحيد من هنا .
ودفعته أمامها خارج مكمنها ، وهى تهتف فى صرامة :
ـ قفوا .. حركة واحدة ، وأنسف رأس البروفيسير (مانهايم) بلا هوادة .
توقّف الرجال دفعة واحدة ، أمام ذلك المشهد ، وعقد (أندروفيتش) حاجبيه ، وهو يتطلّع إليها فى صمت صارم ، فى حين صرخ البروفيسير فى رعب :
ـ ماذا أصابك ؟! هل جننت ؟!
سألته فى صرامة :
ـ أيهما تفضّل ، لو أنك موضعى يا بروفيسير ؟! الموت أم الجنون ؟!

اتسعت عينا البروفيسير فى هلع ، على عكس (أندروفيتش) ، الذى استعاد هدوءه وبروده ، وهو يقول :
ـ هل تتصوّرين أنه يمكنك النجاة ، بهذا الأسلوب التقليدى الساذج ؟!
هزّت كتفيها ، مجيبة فى سخرية :
ـ ولِمَ لا ؟! التقليديات لا تندثر قط .
مطّ شفتيه فى برود ، وقال :
ـ بالتأكيد .. ولكن هل تعلمين طبيعة التقليديات ، التى نشأت عليها فى وطنى ؟!
قالت فى سرعة :
ـ أتقصد الاتحاد السوفيتى ؟!
ابتسم فى سخرية ، قائلاً :
ـ بالضبط .. من الواضح أنك تستطيعين تمييز اللهجات الشرقية جيدًا .
أجابته بسخرية أكثر :
ـ خطأ يا رجل .. يمكنك أن تقول إننى أحفظ الملفات السوفيتية القديمة عن ظهر قلب .. أليس كذلك يا ماجور (أندروفيتش) ؟!

رفع أحد حاجبيه ، متمتمًا فى برود مستفز :

ـ هكذا ؟!

تابعت فى مزيج مدهش من الصرامة والسخرية :

ـ نعم .. هكذا .. لقد قرأت كل ما جمعته مخابراتنا عنك يا (يورى أندروفيتش) ، منذ التحقت بالعمل فى جهاز المخابرات السوفيتى ، وحتى تم استبعادك منه لأسباب أخلاقية ، و ...

قاطعها بسرعة ، وكأنما يخشى استفاضتها فى الحديث :

ـ عظيم .. معلومات ممتازة أيتها المصرية ، ولكننى أخشى أنها لن تكفى لخروجك من هنا سالمة .

تأوه البروفيسير (ماتهايم) فى ألم ، عندما ضغطت فوهة مسدسها أكثر وأكثر فى عنقه ، قائلة :

ـ وماذا عن البروفيسير (ماتهايم) ؟! إنه درع مناسب للنجاة .. أليس كذلك ؟!

صمت (أندروفيتش) لحظة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ هذا يعيدنا إلى الحديث عن التقليديات فى وطنى .. هل تعلمين ما كنا نفعله ، إذا ما حاول شخص ما الاحتماء

بأحد ذوى الحيثية ؟..

ورفع مسدسه ، مصوبًا إياه للبروفيسير ، وهو يتابع :

ـ كنا نطلق النار على الاثنين ، ثم نصرف معاشًا محترمًا لأسرة الشهيد .

أطلقت (جيهان) ضحكة ساخرة ، وهى تقول :

ـ أراهن على أنك لا تستطيع تطبيق هذا المبدأ هنا .

هتف البروفيسير مذعورًا :

ـ لا تحاولى استفزازه باللّه عليك .

أما (كوادروس) ، فمال على (أندروفيتش) ، قائلاً فى عصبية :

ـ قل لى أيها القائد : لِمَ لا نطبِّق تقاليدكم القديمة ؟!

انعقد حاجبا الروسى ، وبدا وكأنه يحاول حسم أمره ، و ...

وفجأة ، انطلق رنين هاتفه المحمول فى جيبه ، فالتقطه بحركة سريعة ، وهو يقول :

ـ أنا (يورى) .. من المتحدِّث ؟!

تألَّقت عيناه بشدة ، وهو يستمع إلى السنيورا ، وغمغم :

- عظيم .. عظيم يا سنيورا ..

بدا التوتر على وجه (جيهان) ، وقالت فى عصبية :

- لو أنها خدمة جديدة ، سأنسف رأس البروفيسير أمام عيونكم جميعًا .

صرخ البروفيسير مذعورًا :

- لقد جننت حتمًا .. لابد أنك ...

أطلق (أندروفيتش) ضحكة قوية عالية ، بترت صرخة البروفيسير ، الذى حدّق فيه فى ذهول ، وسمعه يقول :

- كلاّ يا بروفيسير .. إنها لم تجن .. كل ما تفعله هو أنها تحاول الاحتماء بك .. محاولةُ خداعٍ ليس أكثر .

أجابته (جيهان) فى عصبية :

- دعنى أحذّرك للمرة الأخيرة يا (أندروفيتش) .. إننى جادة تمامًا فيما أقول ، وأية محاولة منكم ، ستجعلنى أنسف رأسه ، وأفقدكم إياه إلى الأبد ، و ...

قاطعها (أندروفيتش) فى سخرية :

- ولماذا تبذلين هذا الجهد يا فاتنتى ؟! اتركى هذه المهمة لى .

ومع آخر حروف عبارته ، رفع مسدسه بسرعة ، وأطلق النار ..

وجحظت عينا البروفيسير (ماتهايم) فى شدة ، ولوّح بكفه لحظة ، والدماء تنبثق من ثقب فى منتصف جبهته ، بين حاجبيه تمامًا ..

ثم هوى ..

هوى جثة هامدة ، عند قدمى (جيهان) ، فى نفس اللحظة التى أشار فيها (أندروفيتش) لرجاله ، قائلاً ببروده الأسطورى المثير :

- اقتلوها .

وردّدت جدران (بيليجرو) دوى الرصاصات ..

وسالت الدماء فى الممر ..

ممر الجحيم .

★ ★ ★



٧ - المقاتل ..

لم يشعر (أدهم صبرى) ، فى حياته كلها ، بعنف انفجار ، مثلما شعر به هذه المرة ..

لقد انطلق الصاروخ من الهليوكوبتر ، وأصاب مؤخرة آلة الحفر ، التى ينطلق بها عبر الممر ، ثم انفجر بعنف هائل ..

عنف انتزع الآلة الضخمة الثقيلة من مكانها ، وضرب بها جدار الممر فى قوة ، قبل أن تنقلب على جانبها ، وتشتعل النيران فى مؤخرتها ..

وبالنسبة إليه ، وجد (أدهم) جسده يندفع إلى الأمام فى قوة ، فارتطم بعجلة القيادة ، وشعر بأحد أضلاعه يتحطم ، قبل أن يرتج فى عنف ، عندما ارتطمت الآلة بجدار الممر ، وتشبثت يده بأقرب شىء إليه ، والآلة تنقلب ، وتشتعل فيها النيران ..

لم يدر ماذا أصابه بالضبط ، ولا كيف بقى على قيد الحياة ، بعد هذا الانفجار الرهيب ، وشعر بآلام مبرحة فى صدره ورأسه ، وبطنين عنيف فى أذنيه ،

وسمع هدير مروحة الهليوكوبتر ، التى تحلق فوقه ، وقرقعة النيران فى مؤخرة الآلة ..

ولكنه لم يتحرك من مكانه ..

إنه حتى لم يحاول ..

الآلام الرهيبة ، التى انتشرت فى جسده كله ، مع الدوار الذى يشعر به ، منعاه من التحرك ، خاصة وأن موقعه هذا كان يحجبه عن ركاب الهليوكوبتر تمامًا ..

ثم سمع دوى الرصاصة ..

ومن مكانه ، لمح شخصًا يسقط من الهليوكوبتر ، وخلفه مدفعه الآلى ..

ثم رأى الهليوكوبتر تنطلق عائدة إلى حيث ترك (جيهان) والبروفيسير (مانهايم) ..

هذا وحده جعله يستنفر قواه كلها ، ويستجمع كل ما تبقى له منها ، وينهض من بين الحطام ، والأشياء التى تبعثرت من حوله ..

أسلاك ، وحبال ، ومطارق ، وأدوات حفر وبناء يدوية مختلفة ..

كلها تخطاها بقفزة واحدة ، وتطلع فى توتر إلى

الهليوكوبتر ، التى تهبط خلف الصخور ، وغمغم :

- يا للأوغاد !..

وعلى الرغم من آلامه وضلعه المكسورة اندفع يلتقط المدفع الآلى ، الملقى أرضًا ، إلى جوار جثة الرجل ، وأسرع إلى الصخور الأمامية ، وراح يتسلقها فى خفة ، حتى بلغ قمتها ، وهناك انعقد حاجباه فى شدة ، عندما رأى (أندروفيتش) يطلق النار على رأس البروفيسير (مانهايم) ، ثم يأمر رجاله بإطلاق النار على (جيهان) ، و ...

ودوت الرصاصات فى قلب الممر ..

رصاصات (أدهم) ..

انطلقت تسبق رصاصات رجال السنيورا ، الذين فوجئوا بها تنهال عليهم كالمطر ، وتحصد اثنين منهم على الفور ، فالتفت الباقون إلى مصدرها بسرعة البرق ، وراحوا يطلقون رصاصاتهم نحو (أدهم) ، وهم يحتمون بجسم الهليوكوبتر ..

فيما عدا (أندروفيتش) ..

طبيعته كرجل مخابرات ، جعلته أكثر الجميع تماسكًا ، وأسرعهم استيعابًا للموقف ، وتقديرًا له ..

ففى اللحظة التى أطلق فيها (أدهم) رصاصاته ، أدرك الروسى أن خصمه لم يلق مصرعه ، على الرغم من عنف الانفجار ، وأنه قد انطلق بكل قوته ؛ لإنقاذ زميلته من بين أيديهم ..

وأدرك أيضًا ما هو أكثر أهمية ..

أدرك أن تلك الزميلة ستكون بطاقتهم الرابحة ، للنجاة من رصاصات (أدهم) ، التى لا تخطئ هدفها قط ..

وبكل قوته وسرعته ، انقضّ (أندروفيتش) على (جيهان) ، التى اتخذت وضعًا قتاليًا ، هاتفة :

- إياك أن ...

إلا أن خبرة الروسى القتالية ، وسنوات عمله الطويلة فى المخابرات السوفيتية ، جعلته يميل فى رشاقة ، ثم ينقضّ عليها من زاوية عسيرة ، وهو يقاطعها ، قائلاً :

- أخبرينى يا عزيزتى .. لماذا لم تطلقى النار ؟!

وبكل مهارة ، هوى على مؤخرة عنقها بضربة حادة سريعة ، جعلتها تُطلق شهقة مكتومة ، قبل أن تدور بها الأرض ، وهو يتابع فى صرامة :

- ترى أيعنى هذا أنك كنت تهددينا طوال الوقت بمسدس فارغ .

فقدت (جيهان) توازنها ، وكادت تسقط أرضًا ، لولا أن التقطها هو بين ذراعيه ، وألصق فوهة مسدسه الباردة بصدغها ، وهو يندفع نحو الهليوكوبتر ، هاتفًا :

- تراجعوا يا رجال .. إلى الهليوكوبتر .

انعقد حاجبا (أدهم) فى توتر بالغ ، عندما لمح (جيهان) بين يدى (أندروفيتش) ، وأدرك مع الوسيلة ، التى ينسحب بها مع رجاله ، أنه يواجه فريقًا من المحترفين الحقيقيين ، فقد احتمى اثنان منهم بجسم الهليوكوبتر المصفح ، وراحا يطلقان النار عليه دون توقُّف ، ليمنحا زملاءهما فرصة التراجع والانسحاب ..

وانطلقت ضحكة (أندروفيتش) تجلجل فى المكان ، وهو يدفع (جيهان) داخل الهليوكوبتر ، ويثب إلى مقعد قيادتها ، قائلاً :

- كنت أعلم أننى طرقت نقطة ضعفك الوحيدة أيها المصرى .. عواطفك الساذجة المرهفة ..إنك لن

تجرؤ على إصابتنا بسوء ، مادامت زميلتك بين أيدينا ..

ولكن (أدهم) واصل إطلاق النار على الهليوكوبتر ، وهى ترتفع من مكانها ، وبداخلها (جيهان) ، التى لم تستعد توازنها بعد ، فى حين واصل (أندروفيتش) ضحكاته ، هاتفًا :

- أطلق كل ما لديك من رصاصات أيها المتحذلق ، فلقد اخترت هليوكوبتر مصفَّحة بالكامل .. حتى مروحتها لن تحطمها الرصاصات .. هيا .. اخسر كل رصاصاتك .

لم يكن الروسى يُدرك ، وهو يلقى عبارته الساخرة هذه ، أن (أدهم) لم يواصل إطلاق النار ، إلا ليدرك هذا الأمر بالتحديد ..

كان يختبر قوة الهليوكوبتر وجسمها المصفَّح ؛ ليتعرَّف طبيعة خصمه وقوته ..

ولقد ارتفع هذا الخصم بالهليوكوبتر ، ودار بها ، ليطلق مدافعها الأربعة نحوه ..

وقبل أن تنطلق الرصاصات قفز (أدهم) من مكانه ، وهبط إلى أرضية الممر ، ثم انطلق يعدو نحو حطام آلة الحفر ..

ولكن (أندروفيتش) انطلق خلفه بالهليوكوبتر ، وهو يقول فى ظفر بارد :

ـ لن تجد مكانـًا واحدًا ، تذهب إليه هذه المرة يا رجل .

كان (أدهم) يعدو بكل قوته ، ولكن الهليوكوبتر لحقت به فى بساطة ، وأحسن الروسى تصويب مدافعه هذه المرة ، وهو يقول بلهجة ساخرة :

ـ هيا .. قل وداعًا لهذه الدنيا يا (أدهم) .

قالها ، وضغط أزرار المدافع الآلية ، و ...

وانطلقت الرصاصات ..

★ ★ ★

لم يتوقَّف عقل البروفيسير (بولانسكى) عن القلق والتفكير لحظة واحدة ، منذ هبطت به الطائرة الصغيرة فى تلك المنطقة ، فى قلب جبال (بوليفيا) ..

كان مندهشًا فى البداية ؛ لأن رحلته من (سيبيريا) إلى (أمريكا الجنوبية) ، لم تستغرق سوى هذه الساعات القليلة ، ثم لم يلبث أن انتبه إلى أن الطائرة كانت تنطلق فى اتجاه الشرق لا الغرب ..

ولكن حتى هذا لم يعد يشغله فى تلك اللحظة ..

لقد هبطت الطائرة ، وها هو ذا يجلس داخل مكتب واسع أنيق ، لم ير مثيلاً له ، فى (موسكو) كلها ، ولكنه مازال يجهل لماذا أتوا به إلى هنا ؟!

ولماذا أحضروه بهذا الأسلوب المعقَّد ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

« مرحبًا بك هنا يا بروفيسير (بولانسكى) .. »

انتفض جسده فى عنف ، عندما سمع العبارة ، على الرغم من الصوت الأنثوى الناعم ، الذى نطقها ، وأدهشه أن تنطلق فى أذنه ضحكة أنثوية أكثر نعومة ، وهو يلتفت إلى مصدر الصوت ، و ...

وعاد جسده ينتفض مرة أخرى ..

وبمنتهى العنف ..

وفى هذه المرة ، كان سبب انتفاضته مختلفًا تمامًا ..

لقد كانت انتفاضة انبهار ..

فعندما استدار إلى مصدر الضحكة ، وقع بصره على امرأة فاتنة ، خُيِّل إليه أنه لم ير فى حياته كلها من هى أكثر جمالاً منها ..

امرأة جعلت قلبه يخفق فى عنف بين ضلوعه ، وخاصة بعد السنوات الطويلة ، التى قضاها فى معتقل (سيبيريا) ..

وبكل اللهفة والانبهار ، تعلقت عيناه بالسنيورا ، وهى تعبر حجرة المكتب الواسعة فى تهاد متعمد ، حتى بلغت مكتبها ، وجلست خلفه ، وهى تمنحه ابتسامة ساحرة ، قبل أن تقول :

ـ هذا المكان أفضل من (سيبيريا) .. أليس كذلك ؟!

ردد مبهوتًا :

ـ (سيبيريا) ؟!

نطقها وكأنها أول مرة يسمع فيها هذا الاسم ، ثم لم يلبث أن انتفض هاتفًا :

ـ آه .. بالتأكيد .. هذا المكان أفضل كثيرًا .

انطلقت منها ضحكة مرحة ، خفق لها قلبه ثانية ، قبل أن تقول :

ـ أنت أيضًا ستصبح أفضل كثيرًا هنا يا بروفيسير .

هتف فى حماس :

ـ بالتأكيد .

رمقته بنظرة صامتة ، قبل أن تتراجع فى مقعدها ، قائلة :

ـ إنك لم تسألنى حتى ما الذى ستفعله هنا .

ابتسم ، قائلاً :

ـ أى شىء أفعله هنا ، سيكون أفضل مما كنت أفعله فى (سيبيريا) .

ابتسمت ابتسامة عذبة ، جعلته يضيف فى حماس :

ـ ليس لدىَّ أدنى شك فى هذا .

انطلقت منها ضحكة عابثة ، قبل أن تميل نحوه ، قائلة :

ـ اطمئن يا بروفيسير .. هنا ستعود إلى عملك الأصلى .

ردد مبهورًا :

ـ عملى الأصلى ؟!

أجابته بسرعة :

ـ بالتأكيد .. ستعود للعمل كخبير فى الهندسة النووية .

تألقت عيناه فى لهفة ، وهو يهتف فى سعادة :

ـ حقًا يا سيدتى ؟!

أشارت إلى نفسها ، قائلة فى حزم :

ـ اسمى السنيورا .. خاطبنى دائمًا بهذا اللقب .

ازدرد لعابه فى صعوبة ، وقال فى انفعال :
ـ حقًا يا سنيورا .
ابتسمت فى ظفر ، قائلة :
ـ بالتأكيد يا بروفيسير (بولانسكى) بالتأكيد ..
وبكلمات واضحة مباشرة ، راحت تشرح له الأمر كله ..
وبكل التفاصيل ..
وعندما انتهت من روايتها ، وكشفت كل أوراقها ، كان بريق عينى البروفيسير يكاد يضىء الحجرة كلها ...
وكان هذا يعنى أن فريق السنيورا النووى قد اكتمل ..
وأن خطتها للسيطرة على العالم قد بدأت ..
وستمضى فى طريقها حتى النهاية ..
نهاية العالم الحر ..

★ ★ ★

من المؤكد أن محترفًا مثل (يورى أندروفيتش) ، لا يمكن أن يخطئ الهدف مرتين ..
صحيح أن المدافع الآلية ، التى تم تزويد الهليوكوبتر

بها ، لم تكن مصوبة بدقة ، إلا أنه ، طبقًا لخبراته السابقة ، يمكنه تحديد زاوية الخطأ ، وإجادة التصويب ، و ...
ونسف خصمه ـ نسفًا ..
لذا ، فعندما صوب مدافع الهليوكوبتر الأربعة نحو (أدهم) ، وضغط أزرار الإطلاق ، كان من الطبيعى أن تنطلق رصاصاته لتنسف (أدهم) نسفًا ..
مع أدنى احتمال للخطأ ..
لولا ما حدث ..
ففى نفس اللحظة تقريبًا ، التى ضغط فيها الأزرار ، تملصت (جيهان) من الرجل الممسك بها ، وانقضت عليه من الخلف ، هاتفة :
ـ لن تظفر بـ (أدهم صبرى) أبدًا .
جاءت انتفاضتها فى اللحظة المناسبة بالضبط ، على نحو باغت (أندروفيتش) ، وجعله يجذب عصا القيادة بحركة غريزية ، فارتفعت مقدمتها قليلاً ، وانطلقت رصاصات المدافع الأربعة لتخطئ هدفها ، وتضرب الجدار الصخرى للممر ..
وبكل غضب الدنيا ، دفع (أندروفيتش) (جيهان) عنه ، صائحًا :

- أيتها اللعينة !

انقضّت عليه مرة أخرى ، هاتفة :

- ولكننى هزمتك .. أليس كذلك ؟!

تفجّرت ثورة هائلة فى أعماق (أندروفيتش) ، جعلته يلكمها بكل قوته ، صارخًا :

- لا أحد يهزم (أندروفيتش) .. لا أحد .

ومع صرخته ، انتزع مسدسه من حزامه ، وأدار فوهته نحوها ، و ...

وأطلق النار ..

كانت (جيهان) تنقضّ عليه للمرة الثانية ، عندما شعرت بعمود من النار يخترق صدرها ، وينتزعها من مكانها إلى خارج الهليوكوبتر ، على ارتفاع أكثر من عشرين مترًا من الأرض ، فانطلقت من حلقها صرخة قوية ، وهى تضرب الهواء بذراعيها وساقيها ..

ورأى (أدهم) هذا المشهد ..

رآه ، وهو يعدو نحو آلة الحفر العملاقة ..

ومن أعمق أعماقه ، صرخ :

- أيها الأوغاد ..

ثم تفجّرت فى أعماقه بغتة طاقة هائلة ..

طاقة ضاعفت قوته مرتين على الأقل ، وجعلته يعدو نحو (جيهان) بسرعة خرافية ، اتسعت لها عيون ركاب الطائرة ذهولاً وانبهارًا ، حتى إن (كوادروس) هتف دون وعى :

- يا للشيطان !.. من المستحيل أن يكون هذا بشريًا عاديًا ..

وقبل حتى أن تكتمل عبارته ، وثب (أدهم) ..

كانت وثبة ، أقل ما يمكن أن توصف به ، هو أنها مذهلة ، فقد قطع خمسة أمتار دفعة واحدة ، ليلتقط جسد (جيهان) فى الهواء ، ويسقط معها أرضًا ..

وبمنتهى العنف ، ارتطم جسده بأرضية الممر ، وصرخت ضلعه المكسورة صرخة ألم هائلة ، لم تتجاوز شفتيه ، وهو يحمى (جيهان) بجسده ، حتى لا يقتلها السقوط ..

كان وجهها شاحبًا كالموتى ، والدم ينزف من صدرها فى غزارة ، وعلى الرغم من هذا فقد ارتسمت على شفتيها المرتجفتين ابتسامة ، وهى تتمتم :

- رباه !.. لقد فعلتها يا (أدهم) .. فعلتها من أجلى .

ثم سعلت فى قوة ، وتناثرت الدماء من بين شفتيها على وجهه ، قبل أن يتهاوى رأسها على صدره ..

وفى اللحظة نفسها ، استدار (أندروفيتش) بالهليوكوبتر ، ليعاود الانقضاض عليه ، صارخًا ..

ـ سأقتلك يا (أدهم صبرى) .. سأقتلك .

لم يكن هناك وقت للمشاعر ، فى مثل هذه الظروف ، لذا فقد ترك (أدهم) (جيهان) راقدة على الممر ، وانطلق يعدو بكل قوته نحو حطام آلة الحفر ..

وفى نفس اللحظة ، التى قفز فيها (أدهم) بين الحطام ، انطلقت رصاصات الهليوكوبتر ، وارتطمت كلها بالأجزاء الفولاذية السميكة ..

ولكن الروسى لم يستسلم ..

لقد دار بالهليوكوبتر دورة أخرى ، هاتفًا :

ـ لن يمكنك الاختفاء هناك إلى الأبد يا (أدهم) .. ستنالك رصاصاتى ، إن عاجلاً أو آجلاً .

تركه (أدهم) يردِّد هتافه الغاضب ، فى حين التقط هو مطرقة ثقيلة ، من مطارق البناء ، المتناثرة حول الحطام ، وربطها بطرف الحبل الملقى ، ثم وضع



فقد قطع خمسة أمتار دفعة واحدة ، ليلتقط جسد (جيهان) فى الهواء ، ويسقط معها أرضًا ..

مطرقة ثانية فى الطرف الآخر له ، وهو يقول فى صرامة :

ـ كل قطرة من دم (جيهان) ، ستدفعون ثمنها غاليًا أيها الأوغاد .

كان (أندروفيتش) يدور بالهليوكوبتر حول الحطام ، عندما فوجئ بـ (أدهم) يقفز خارجه فجأة ، وهو يحمل الحبل والمطرقتين ، ويديرهما حول رأسه فى سرعة ..

وفهم رجل المخابرات السوفيتى السابق الأمر ، من النظرة الأولى ..

وبكل قوته، جذب عصا القيادة ؛ ليرتفع بالهليوكوبتر، هاتفًا :

ـ يا للشيطان !

وقبل أن يكتمل هتافه ، ألقى (أدهم) سلاحه ..

ومع ثقل المطرقتين ، فى طرفى الحبل ، انطلقتا تدوران فى الهواء ، وتصنعان مع الحبل ما يشبه المروحة ، حتى ارتطما بمروحة الهليوكوبتر ، التى ينطلق بها (أندروفيتش) محاولاً الفرار ، و ...

وتحطمت المروحة بدوى هائل ، وطار أحد أذرعتها

ليرتطم بالجدار الصخرى ، ثم يرتدّ عنه فى عنف ، كاد يحطم رأس (أدهم) ، لولا أن تفاداه بقفزة جانبية ماهرة ، فى حين اندفعت الهليوكوبتر عبر الممر بسرعة خرافية ، وهي تدور حول نفسها ، حتى ارتطم ذيلها بالجدار ، وتحطم بقوة ، ثم اختفت فى منحنى بعيد ..

وبدا صوت الارتطام ضعيفًا مكتومًا ، ولكن (أدهم) لم يبال به ، وإنما أسرع يفحص زميلته (جيهان) ، ويربت على خدها فى توتر ، قائلاً :

ـ (جيهان) .. (جيهان) .. تحدثى إلىّ .

ولكن (جيهان) لم تنطق حرفًا واحدًا ..

لقد ازداد وجهها امتقاعًا وشحوبًا ، حتى أصبحت أشبه بـ ..

بالموتى ..

★ ★ ★

مطّ المفتش (باندرياس) شفتيه فى ضيق ، وهو يتطلع إلى أحد الانهيارات الصخرية ، التى سدّت مدخل الممر ، ولوّح بكفه ، قائلاً :

ـ كان ينبغى أن أتوقّع هذا .. المنازل القديمة

انهارت مع العاصفة ، ومن الطبيعى أن تحدث بعض الانهيارات هنا .

أشار إليه أحد رجال الأمن ، قائلاً :

ـ أعتقد أن الممر قد شهد انهيارًا حديثًا أيضًا يا سيِّدى المفتش ، فبعض السكان هنا سمعوا ما يشبه الانفجار .

التفى حاجبا (باندرياس) ، وهو يكرِّر :

ـ انفجار ؟! من سمع هذا الانفجار ؟

قال رجل الأمن ، محاولاً توضيح الموقف :

ـ ليس انفجارًا يا سيِّدى المفتش ، ولكن صوتًا يشبه الانفجار .

لم يعلِّق (باندرياس) على عبارة الرجل ، ولكن شيئًا ما فى أعماقه كان يشعر أن ما سمعه السكان كان انفجارًا حقيقيًّا ، وليس مجرَّد انهيار صخرى عادى ..

مادام هناك رجل مثل (أدهم صبرى) فى (كوهيدور بيليجرو) ، فالأرجح أن ما حدث كان انفجارًا ..

لم يدر لماذا ربط عقله بين الانفجار ، وتلك السيارة

السوداء ، التى كانت أوَّل من يتحدَّى الرياح ، عندما انخفضت حدة العاصفة ، ولكن شيئًا ما فى أعماقه ، أو فى خبراته السابقة ، جعله يشعر بهذا ، ويكاد يؤمن به ، إيمانه بنفسه شخصيًّا ..

ولكن طبيعته كرجل شرطة ، دفعته لإلقاء عشرات الأسئلة حول الأمر ..

سأل عن أولئك ، الذين سمعوا ما حدث ..

وعن خبراتهم السابقة فى الحروب ، أو العمل ، أو أى مجال له صلة بالقدرة على تمييز أصوات الانفجارات ، عن مختلف الأصوات الأخرى الشبيهة ..

وبالذات الانهيارات الصخرية .

وفى الوقت ذاته ، كان يهتف بين كل لحظة وأخرى :

ـ أين الحفَّار ؟! لماذا تأخَّر ؟! أريد إزالة الصخور من مدخل الممر بأقصى سرعة ، و ...

وقبل أن يتم هتافه ، فى المرة الأخيرة ، دوى الانفجار الثانى من قلب الممر ..

كان يبعد أربعة كيلومترات على الأقل من مدخل الممر ، وعلى الرغم من هذا فقد شعر الجميع بارتجاجته وقوته ..

وفى انفعال جارف ، هتف المفتش (باندرياس) :

ـ إنه انفجار .. ليس هناك أدنى شكٍ فى هذا .. انفجار .

سأله رجل الأمن فى توتر بالغ :

ـ ولكن كيف ؟! الممر مغلق حتمًا بعد العاصفة .

صاح به (باندرياس) :

ـ لست أدرى كيف ، ولكنه انفجار ، وهذا يعنى أن ممر (بيليجرو) يشهد قتالاً من نوع خاص ، ونحن نقف هنا فى انتظار الحفار وسائقه الغبى .

وبلغ انفعاله ذروته ، وهو يتابع فى حدة :

ـ لن أنتظر ذلك الحفار اللعين .. سأعبر الحاجز الصخرى بأى ثمن .. هل تفهمون ؟ بأى ثمن .

قالها ، واندفع يتسلّق الحاجز الصخرى بكل نشاط وحماس ، ورجاله يلحقون به ، حتى لا يفوتهم ذلك القتال الخاص فى قلب الممر ..

ممر الخطر ..

★ ★ ★

ما أسوأ الشعور بالعجز ..

وبالذات مع رجل مثل (أدهم صبرى) ..

فداخل ممر الخطر ، وبين جدرانه الصخرية العالية ، كانت زميلته (جيهان) تلفظ أنفاسها الأخيرة بين ذراعيه ، وهو عاجز عن مد يد المساعدة إليها ..

كل ما فعله هو أن مزّق جزءًا من قميصه ، وراح يحيط به صدرها ، محاولاً منع نزيف الدم ، الذى يتدفّق من أثر رصاصة (أندروفيتش) ..

ولكن (جيهان) ظلت صامتة شاحبة ، وانخفض نبضها على نحو مخيف ، وكأنما تشبّثت بها يد الموت ، ورفضت منحها مهلة إضافية فى عالمنا ..

وبكل غضبه وحنقه ، هتف (أدهم) :

ـ يا للأوغاد !! أقسم أن يدفعوا الثمن غاليًا .. أقسم بهذا .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى تناهى إلى مسامعه بغتة هدير يقترب منه عبر الممر ..

وتجمّد (أدهم) فى مكانه لحظات ، وهو يرهف سمعه ، محاولاً تمييز ذلك الهدير ، الذى يختلف تمامًا عن هدير آلة الحفر ، الذى سمعوه فى أثناء العاصفة ..

كان هديرًا أقلّ قوة ، يمتزج بصوت إطارات مطاطية كبيرة ، تسير على أرضية الممر ..

ولم يكن هناك وقت للبحث والتفسير ..

لذا ، فقد أسرع (أدهم) يحمل (جيهان) ، التى تسارعت أنفاسها الضعيفة ، وتحولت إلى ما يشبه اللهاث ، وتلفت حوله فى توتر ، باحثًا عن وسيلة للاختفاء ، و ...

وفجأة ، برز ذلك الشىء ، الذى يصدر الهدير ، عند منحنى الممر ..

وكانت مفاجأة ..

مفاجأة حقيقية مدهشة ..

وقاتلة ..

فذلك الشىء ، الذى برز أمام عينيه ، كان تلك الهليوكوبتر ..

نعم .. نفس الهليوكوبتر ، التى أسقطها منذ دقائق ..

ولكن دون مروحتها وذيلها ..

لقد التفَّ سلاح (أدهم) حول مروحتها ، وتسبَّب فى تحطيمها ، ولكن (يورى أندروفيتش) ، رجل المخابرات السوفيتى السابق ، نجح فى السيطرة على الموقف ، وهبط بالهليوكوبتر ، التى فقدت مروحتها وذيلها ، فى قلب الممر ..

صحيح أن الهبوط كان عنيفًا للغاية ، إلا أن الإطارات المطاطية الثلاثة ، أسفل الهليوكوبتر ، تلقَّت الصدمة كلها ، وأبقت على جسمها سليمًا ..

وعلى الرغم من الغضب الهادر فى أعماق (أندروفيتش) ، إلا أنه ـ كمحترف ـ لم يضع لحظة واحدة ، وإنما استدار بالهليوكوبتر .. أو بمعنى أدق ببقاياها ، وانطلق بها على أرضية الممر ، كما لو كانت سيارة كبيرة ..

ومن حسن حظه أن هذا الطراز من طائرات الهليوكوبتر ، كان يسمح بذلك ، ويمنح قائدها القدرة على السير بها على أى طريق ، يصلح لقيادة سيارة عادية ..

والواقع أن (أدهم) لم يكن يتوقَّع شيئًا كهذا أبدًا ..

صحيح أنه يعلم بوجود مثل هذا الطراز من طائرات الهليوكوبتر المدنية ، وخصوصًا بين تلك المستخدمة فى مشروعات (التاكسى الطائر)(*) ، إلا أنه كان

(*) التاكس الطائر : سرب من طائرات هليوكوبتر مدنية صغيرة ، يستخدم لنقل الركاب ، عبر المسافات الطويلة ، تفاديًا لزحام الطرق ، وبالذات فى أوقات الذروة ، وسيتم إدخال هذا النوع من الخدمة فى (مصر) قريبًا .

يتصوَّر أن سقوط الهليوكوبتر قد أدّى إلى تحطمَها تمامًا ، على أرضية الممر ..

أما (أندروفيتش) ، فلم يكد يلمح (أدهم) ، وهو يحمل (جيهان) ، حتى هتف فى ظفر :

ـ مفاجأة يا عزيزى (أدهم) .. أليس كذلك ؟!

ومع هتافه ، قفزت يده إلى أزرار إطلاق المدافع الآلية .. وضغطها بكل قوته ..

وكان سباقًا فى سرعة الحركة والاستجابة ، بين رجلى المخابرات ، المصرى والسوفيتى ..

سباق بين القوة والمهارة ..

والشجاعة ..

ففى نفس اللحظة ، التى برزت فيها الهليوكوبتر ، استوعب عقل (أدهم) الموقف كله ، وأدرك أنه يواجه وحشًا معدنيًا ، تم تزويده بأربعة مدافع آلية ..

ولم ينتظر حتى يُطلق (أندروفيتش) هتافه ، بل تحرك حاملاً (جيهان) ..

وبسرعة مدهشة ..

وبقفزة ماهرة رائعة ، وثب (أدهم) يحتمى بصخرة كبيرة ، عند جدار الممر ، فى نفس اللحظة

التى انطلقت فيها رصاصات المدافع الآلية الأربعة ..

وعلى الرغم من أن الرصاصات كلها قد أصابت الصخرة ، التى يحتمى خلفها (أدهم) ، إلا أن (أندروفيتش) لم يشعر بأدنى غضب ..

لقد حافظ على هدوئه وبروده ، وهو يوقف محركات الهليوكوبتر ، قائلاً :

ـ محاولة جيدة أيها المصرى ، ولكنها لن تفيدك كثيرًا .. إنها مسألة وقت فحسب .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة ظافرة ، وهو يستطرد :

ـ بل مسألة دقائق محدودة .

ثم أشار إلى رجاله ، مضيفًا فى صرامة :

ـ عليكم به .

قفز (كوادروس) وباقى الرجال من الهليوكوبتر ، وانطلقوا بمدافعهم الآلية نحو الصخرة الكبيرة ، التى يختفى خلفها (أدهم) ، وداروا حولها ، وارتفعت فوهات مدافعهم الآلية كلها فى آن واحد ، و ...

وانطلقت الرصاصات كالمطر ..

أو كالموت .

* * *

٨ ـ ظلام القبور ..

انتفض (سواتر) ، صانع الأسلحة السرى من فراشه ، ووثب يلتقط مسدسه الآلى فى حركة حادة ، مع تلك الطرقات العنيفة ، على باب منزله ، والتى أيقظته مذعورًا ، فى تلك الساعة من الصباح ، وهو الذى اعتاد الاستيقاظ ـ عادة ـ فى منتصف النهار ، واندفع نحو الباب ، وهو يلوّح بمسدسه الآلى فى عصبية ، هاتفًا :

ـ من بالباب ؟!

أتاه صوت غاضب ثائر ، يجيب :

ـ إنه أنا أيها الوغد .. (ألكسندر) .

هتف به فى حدة :

ـ (ألكسندر) من ؟!

أجابه صاحب الصوت الثائر :

ـ الكولونيل (ألكسندر) أيها الحقير .. هيا .. افتح الباب ، قبل أن أنسفه برصاصاتى .. هيا .

مطّ (سواتر) شفتيه فى ضيق ، ولكنه أسرع

يفتح الباب ، وهو يقول متبرمًا :

ـ ما الذى أتى بك فى هذه الساعة المبكرة يا كولونيل ؟

ثم استدرك فى حدة مباغتة :

ـ ولماذا أتيت إلى المنزل مباشرة ؟!

دفع الكولونيل (ألكسندر) الباب فى حدة ، وهو يرتدى حلة مدنية أنيقة ، وقال فى غضب ساخط :

ـ كفى يا (سواتر) .. أنا الذى سيلقى الأسئلة اليوم .

تطلّع إليه (سواتر) فى دهشة ، وهو يندفع داخل المنزل ، فى نفس اللحظة التى برز فيها (كاندى) ، من حجرة النوم الإضافية ، وهو يعقد سرواله فى صعوبة ، هاتفًا :

ـ ماذا هناك ؟! من ذا الذى يطرق الباب بهذا العنف ؟!

أشار إليه (سواتر) فى لامبالاة ، وهو يغلق الباب ، قائلاً :

ـ لا عليك يا (كاندى) .. إنه صديقنا (ألكسندر) .

هرش (كاندى) شعره الأشعث ، وهو يحدّق فى

(ألكسندر) ، مغمغمًا فى حيرة :

- (ألكسندر) ؟! فى مثل هذه الساعة ؟!

تجاهل الكولونيل (ألكسندر) هذه الملحوظة ، وهو يلتفت إليهما ، قائلاً فى ثورة :

- ماذا فعلتما بحق الشيطان ؟!

ارتفع حاجبا (كاندى) فى دهشة ، وهو يغمغم :

- ماذا فعلنا ؟!

أما (سواتر) ، فقد التقط علبة بيرة مثلّجة من المبرِّد ، وألقاها إلى (كاندى) ، قبل أن يفتح أخرى ، قائلاً :

- ما الذى تعنيه بالضبط يا كولونيل ؟!

صاح (ألكسندر) فى غضب :

- لقد اتفقتما مع تاجر السلاح (جوانيتو) على تسليمه ثلاث نسخ كاملة ، من مشروع (السوبرمان) .

عاد (كاندى) يهرش رأسه فى حيرة ، فى حين ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتى (سواتر) ، وهو يقول ..

- آه .. أهذا كل ما يغضبك ؟!

انتفض جسد الكولونيل (ألكسندر) من شدة الغضب ، وهو يصرخ :

- ماذا أصابك ؟! بل ماذا أصابكما ؟! هل فقدتما كل إحساس بالأمن والخطورة ؟! هل تدركان عواقب تسريب أسرار سلاحٍ رهيب كهذا ؟!

تناول (سواتر) جرعة من البيرة المثلّجة فى هدوء ، وقال :

- هل تعلم كم سيدفع (جوانيتو) ، مقابل هذه النسخ الثلاث ؟!

صاح (ألكسندر) :

- لا يمكن أن يصل سلاح كهذا إلى تاجر قذر مثل (جوانيتو) ، مهما كان الثمن الذى سيدفعه .

تجاهل (سواتر) العبارة ، وهو يكمل بلهجة خاصة ، متطلعًا إلى الكولونيل :

- عشرين مليونًا من الدولارات .

ابتسم (كاندى) ، متوقعًا أن يقفز الكولونيل (ألكسندر) منبهرًا مبهوتًا ، مع ضخامة المبلغ ، إلا أنه فوجئ به يصرخ بثورة أكثر :

- حتى ولو دفع مليارًا كاملاً .. مشروع (السوبرمان) هذا يندرج تحت الأمور بالغة السرية ، حتى إن مجرَّد ظهوره خارج نطاق الجيش ، سيلقى

الاتهام فوراً على مجموعة محدودة ، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، ولن يمضى يوم واحد ، حتى تشير أصابع الاتهام كلها إلىَّ .. هل تعلمان ما يعنيه هذا ؟! الإعدام .. هل تفهمان ؟!

تجاهل (سواتر) هذا الحديث أيضًا ، وقال مشيرًا إلى (كاندى) :

ـ أنا و (كاندى) اتفقنا على أن نكتفى معًا بعشرة ملايين ، وتحصل أنت وحدك على الملايين العشرة الأخرى .

صاح الكولونيل :

ـ وبِمَ تفيد ملايين الدنيا كلها ، بالنسبة لرجل ميت ؟!

أطلق (سواتر) ضحكة ساخرة ، احتقن لها وجه (ألكسندر) بشدة ، فهتف فى غضب :

ـ ما الذى يضحكك بحق الشيطان ؟!

توقَّف (سواتر) عن الضحك بغتة ، وانقلبت سحنته على نحو مخيف ، حتى لقد بدا بالفعل أشبه بشيطان رجيم ، وهو يقول فى شراسة :

ـ أنت يا كولونيل .. أنت الذى يضحكنى كثيرًا ،

فمع مبلغ كهذا ، بالإضافة إلى الملايين العديدة ، التى حصلت عليها من سنيورتك تلك ، يمكنك أن تفرّ إلى أى مكان فى العالم ، وتحيا حياة الملوك .

صاح به الكولونيل :

ـ ولكننى أفضِّل العيش فى (أمريكا) يا رجل ، ولن أتخلَّى عن حياتى المستقرة فيها بسهولة .

هزَّ (سواتر) كتفيه ، وقال :

ـ وماذا عن تضحيتنا بنصف المبلغ أنا و (كاندى) ، والـ ...

قاطعه الكولونيل فى حدة :

ـ كفى أيها الوغد .. هل تظن أننى صدَّقت ذلك الرقم ، الذى تحاول إبهارى به ؟! أراهن على أن (جوانيتو) سيدفع ثلاثين مليونًا على الأقل ، ليحصل على سلاح رهيب كهذا ..

تبادل (سواتر) و (كاندى) نظرة سريعة ، انعقد بعدها حاجبا الثانى فى شدة ، فى حين صمت الأوَّل بضع لحظات ، قبل أن يهزّ كتفيه بلا مبالاة ، ويلقى ما تبقَّى من علبة البيرة فى جوفه ، ثم يمسح شفتيه بكمه ، ويقول :

ـ فلنفترض هذا .. أعتقد أنه مبلغ مناسب جدًا ، والملايين العشرة ، التى ستحصل عليها ، ستكون نصيبًا عادلاً من الصفقة .. ثم هل تصورت أننا سنمتلك تصميمات سلاح رهيب كهذا ، مع أدوات تصنيعه كاملة ، ثم نكتفى بإنتاج نسخة واحدة منه ؟!.. خطأ يا عزيزى الكولونيل .. خطأ .. الفائدة الحقيقية لتصنيع السلاح هى إنتاجه بالجملة .. تشترى التصميمات بثمن مناسب ، ثم تصنع منه عشرات ، ومئات النسخ .. هكذا تغطى التكاليف على نحو جيد ، وتحصل على الربح المطلوب .

احتقن وجه الكولونيل ، وهو يقول :

ـ هذا لا ينطبق على مشروع (السوبرمان) .. إنه واحد من الأسلحة ، التى تم إدراجها على رأس قائمة السرية والخطورة ، ولا يمكن طرحه للبيع ، مهما كان الثمن .

انعقد حاجبا (سواتر) فى شدة ، وهو يقول :

ـ ولكنك بعته بالفعل يا كولونيل .

هتف الكولونيل منزعجًا :

ـ أنا ماذا ؟!

صاح به (سواتر) فى شراسة :

ـ أنت بعت مشروع (السوبرمان) بالفعل يا كولونيل .. نعم .. لا تحدق فى وجهى هكذا .. لقد بعته لتلك السنيورا ، مقابل مبلغ تافه .. أما نحن ، فقد أحسنا استغلال التصميمات ببراعتنا المعهودة ، وحصلنا على ثلاثين مليونًا كدفعة أولى .

صرخ الكولونيل :

ـ دفعة أولى ؟!

أجابه (كاندى) بسرعة :

ـ بالطبع .. (سواتر) لديه خطة مدهشة ، لنربح أكثر من مائة مليون دولار ، و ...

قاطعه الكولونيل ثائرًا :

ـ مائة مليون ؟! إذن فأنت لم تفكر لحظة واحدة فى الاكتفاء بهذه الملايين الثلاثين يا (سواتر) .. كنت تنوى صنع نسخ أخرى من مشروع (السوبرمان) .. أليس كذلك ؟!

نهض (سواتر) من مقعده ، وهو يقول فى برود :

ـ وماذا توقعت يا كولونيل ؟! هكذا يكون الاستغلال الصحيح لسلاح كهذا .. (جوانيتو) سيحصل على

ثلاثة منه ، وعندما يبدأ فى استخدامه ، ستهرع إلينا العصابات الأخرى ، للحصول على نسخ إضافية ، وسيرتفع عندئذ سعر النسخة الواحدة بالطبع .. ومن يدرى ؟ ربما نكتشف عندئذ أن رقم المائة مليون كان شديد التواضع ، بالنسبة للأرباح الحقيقية ، التى يمكن تحقيقها مع الوقت .

احتقن وجه الكولونيل مرة أخرى ، وضرب سطح المائدة بقبضته ، هاتفًا :

ـ مستحيل يا (سواتر) ! مستحيل ! مشروع (السوبرمان) سيظلّ يندرج تحت قائمة السرية المطلقة ، مهما كان الثمن .. هل تفهم ؟ مهما كان الثمن .

تنهّد (سواتر) فى حرارة ، وتبادل نظرة سريعة مع (كاندى) ، قبل أن يقول فى شىء من الأسف :

ـ يا للخسارة ! كنت أتصوَّر أنك ستشاركنا أرباح هذه اللعبة يا كولونيل (ألكسندر) .. يا للخسارة !

اتسعت عينا الكولونيل ، وتراجع فى حركة حادة ، وهو يقول فى اضطراب :

ـ ماذا تعنى يا (سواتر) .. هه .. ماذا تعنى ؟!

ارتسمت على شفتى (سواتر) ابتسامة مخيفة ، وهو يقول :

ـ فى مثل هذا الموقف ، لا يمكن للمرء إلا أن يعنى شيئًا واحدًا يا عزيزى الكولونيل .

اتسعت عينا (ألكسندر) بشدة ، وتراجع أكثر ، حتى ارتطم بالمائدة ، ولم يكد يفعل حتى شعر بفوهة مسدس باردة تلتصق بمؤخرة عنقه ، وسمع صوت (كاندى) الخشن ، يقول فى شىء من الجذل :

ـ أهذا ما تقصده يا (سواتر) ؟

أومأ (سواتر) برأسه إيجابًا ، وقال دون أن يرفع عينيه عن عين الكولونيل :

ـ للأسف يا عزيزى (كاندى) .

انطلقت من حلق الكولونيل شهقة مذعورة ، ودار حول نفسه فى سرعة ، ويده تقفز لالتقاط مسدسه من حزامه ، و ...

وانطلقت رصاصة (كاندى) بسرعة أكبر ..

وانتهى الأمر فى لحظات معدودة ..

وفى هدوء شديد ، غمغم (سواتر) ، وهو يمسح بأصابعه قطرات الدم ، التى تناثرت على وجهه وثيابه ،

مع تحطم جمجمة الكولونيل :

ـ يا للخسارة ! لن تفيدك الملايين بالفعل فى الجحيم يا كولونيل .

قالها ، ثم انفجر فجأة يضحك على نحو هستيرى ..

ويضحك ..

ويضحك ..

★ ★ ★

عندما قفز (كوادروس) ورفاقه خلف الصخرة الكبيرة ، التى يختفى عندها (أدهم) ورفيقته ، وأطلقوا نيران مدافعهم الآلية فى غزارة ، لم تكن لديهم ذرة واحدة من الشك فى أنهم سيحصدونهما حصدًا ، ولن يتركوهما إلا جثتين هامدتين ، لا يمكن تعرف ملامحهما ، من كثرة ما اخترقهما من رصاصات ..

(أندروفيتش) نفسه لم يكن لديه أدنى شك فى هذا ، حتى إنه لم يكد يسمع دوى الرصاصات ، حتى هتف فى حماس :

ـ إلى الجحيم .. إلى الجحيم يا (أدهم) .. إلى الجـ ..

بتر عبارته بغتة ، مع الدهشة التى ارتسمت على وجه (كوادروس) ورفاقه ، وهم يحدقون فيما خلف الصخرة ، فوثب من الهليوكوبتر ، واندفع نحوهم ، هاتفًا :

ـ ماذا حدث ؟

أشار (كوادروس) إلى ما خلف الصخرة ، وهو يقول :

ـ يا للشيطان !.. هل رأيت هذا أيها القائد ؟!

قطع (أندروفيتش) المسافة التى تفصله عن (كوادروس) بقفزة واحدة ، وانعقد حاجباه فى توتر بالغ ، وهو يهتف :

ـ اللعنة !

فخلف تلك الصخرة الضخمة ، وبزاوية تصعب ملاحظتها فى الظروف العادية ، كانت هناك فتحة متوسِّطة لأحد الكهوف الجبلية ..

فتحة لا تكاد تكفى لعبور رجل واحد ..

وارتسمت الصورة بسرعة فى ذهن (أندروفيتش) ، ورأى بعين الخيال (أدهم) وهو يقفز خلف الصخرة ، حاملاً زميلته (جيهان) ، ثم يكشف وجود تلك



فيدفع جسد زميلته داخلها ، ثم يلحق بها ، ويختفيان معًا في أعماق ذلك الكهف الجبلي ..

الفتحة ، فيدفع جسد زميلته داخلها ، ثم يلحق بها ، ويختفيان معًا في أعماق ذلك الكهف الجبلي ، قبل أن يصل (كوادروس) ورجاله إلى الصخرة ..

وبكل الغضب الثائر في أعماقه ، على الرغم من هدوئه الخارجي ، أشار (أندروفيتش) إلى فتحة الكهف ، وهو يقول لأحد رجاله :

ـ أطلق النار داخل الكهف .

اندفع الرجل دون تفكير ، نحو مدخل الكهف ، ودفع فيه فوهة مدفعه الآلي ، وراح يطلق النار في غزارة ، في حين انعقد حاجبا (أندروفيتش) في شدة ، وهو يرهف السمع لدوي الطلقات داخل الكهف ..

كان من الواضح أن الكهف أكثر اتساعًا من الداخل ، مما يوحي به مدخله الصغير ، بدليل ذلك الصدى الذي يتردَّد داخله لدوي الرصاصات ..

وفي مكان كهذا ، ومع رجل مثل (أدهم صبري) ، تصبح المطاردة أمرًا محفوفًا بالخطر ..

خطرت الفكرة بباله ، في نفس اللحظة التي قال فيها (كوادروس) في حماس :

ـ هل نلحق به داخل الكهف أيها القائد ؟!

التفت إليه الروسى فى بطء ، وقال فى صرامة :

ـ لا بأس يا (كوادروس) .. لو أنكم تتعجلون الصعود إلى السماء .

ارتفع حاجبا (كوادروس) فى دهشة مستنكرة ، وهو يهتف :

ـ ما الذى يعنيه هذا أيها القائد ؟!

أجابه (أندروفيتش) بنفس الصرامة :

ـ يعنى أن رجلاً مثل (أدهم صبرى) ، يمكنه أن يطحن رءوسكم جميعًا ، لو أتحتم له فرصة القتال فى مكان كهذا .

قال (كوادروس) معترضًا :

ـ ولكنه مجرَّد رجل واحد أيها القائد ، وغير مسلَّح ، ويحمل جثة زميلته ، ونحن أكثر من ...

قاطعه (أندروفيتش) :

ـ لو أن الأمور تقاس بالكثرة العددية ، لما تمكَّن أسد واحد من تفريق قطيع كامل من القرود ، بزمجرة واحدة .

تطلَّع إليه (كوادروس) بدهشة أكثر ، وغمغم :

ـ يقولون إن الكثرة تهزم الشجاعة أيها القائد .

أجابه (أندروفيتش) بلهجة تحمل رنة ساخرة :

ـ ليس فى حالة الأسد والقرود .

مطَّ (كوادروس) شفتيه ، وانعقد حاجباه فى تفكير عميق ، محاولاً الربط بين هذا الموقف ، وقصة الأسد والقرود ، فى حين رفع الروسى عينيه ، يفحص الجدار الصخرى كله ، قبل أن يقول :

ـ قل لى يا (كوادروس) .. هل تعتقد أن لهذا الكهف مخرج آخر ؟!

هزَّ (كوادروس) كتفيه ، وأجاب :

ـ كلا .. لست أعتقد هذا .. معظم الكهوف الجبلية ذات مدخل واحد .

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتى (أندروفيتش) ، وهو يغمغم :

ـ عظيم .

خُيِّل لـ (كوادروس) أنه قد فهم ما يقصده قائده ، فقال فى حماس :

ـ آه .. إذن فأنت تنوى أن تفعل به ما نفعله مع الثعالب ، لنجبرها على مغادرة وكرها أيها القائد .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى تخابث مبتذل :

- ستشعل النيران عند مدخل الكهف ، وتتركهما يختنقان بالدخان .. أليس كذلك ؟!

رمقه (أندروفيتش) بنظرة صارمة ، وهو يقول :

- كلاّ يا (كوادروس) .. ليس كذلك !

تراجع (كوادروس) بحركة حادة ، قائلاً :

- ماذا ؟! ما الذى ستفعله إذن أيها القائد ؟

أجابه (أندروفيتش) بنفس الصرامة الباردة :

- إجراء سريع يا رجل .

والتقط من حزامه قنبلة يدوية ، جذب فتيلها ، مضيفًا :

- وحاسم .

ومع قوله ، ألقى القنبلة نحو مدخل الكهف ، وصاح (كوادروس) فى رفاقه :

- ابتعدوا يا رجال .

انطلق الجميع مبتعدين ، ومن خلفهم دوى هذا الانفجار الجديد ..

انفجار نسف الصخور ، عند مدخل الكهف ، وجعلها تنهار لتسده تمامًا بأطنان منها ، على نحو

حذف هذا المدخل من الخريطة الجيولوجية للمنطقة(*).

وإلى الأبد ..

* * *

لم تختلف تصوّرات (أندروفيتش) كثيرًا عما حدث بالفعل ..

لقد فوجئ (أدهم) بوجود تلك الفتحة خلف الصخرة ، فدفع جسد (جيهان) داخلها ، ولحق بها ، قبل وصول (كوادروس) ورفاقه ، وعاد يحمل (جيهان) ، ويعدو بها ، عبر المنطقة ، التى يتسلّل إليها الضوء من الكهف ..

ومن خلفه ، دوت رصاصات المدفع الآلى ، وتردّد صداها داخل الكهف فى عنف ، فمال (أدهم) بحمله ، حتى ارتطم بجدار الكهف ، والتصق به فى

(*) الجيولوجيا : علم الأرض ، ويشمل دراسة أصل الأرض ، وتاريخ تطوّرها وبنياتها ، والأحداث التى مرت بها ، وطبيعتها الكيميائية والفيزيقية ، وكذلك دراسة سكانها ، وتطوّر الحياة فيها ، منذ أوّل تسجيل لنشوئها ، وحتى العصر الحديث ، والجيولوجيا تشمل علومًا كثيرة ، مثل علم الأرض ، وعلم الطبقات ، وعلم الحفريات ، والجيولوجيا الاقتصادية ، وغيرها ..

قوة ، فى محاولة لتفادى الرصاصات العشوائية ، التى تنطلق فى كل مكان ..

كانت أطراف الصخور الحادة تؤلم ظهره ، وتنغرس فيه بلا رحمة ، إلا أنه لم يتحرك قيد أنملة ، حتى توقف دوى الرصاصات ، ونقل إليه مدخل الكهف صوت حديث غير واضح ، بين (أندروفيتش) ورجاله ..

كان مرهقًا بشدة ، ويشعر بتوتر بالغ ، مع موقف (جيهان) ، والظلام الدامس المحيط به .. والذى عجز معه عن رؤية يده نفسها ..

وبطرف قدمه ، راح يتحسس طبيعة الأرض أمامه ، ويتحرك فى حذر ، حاملاً زميلته ، التى بدت أنفاسها قصيرة مبتورة ، وكأنما تلفظ آخرها بين ذراعيه ..

لم تكن الأرض ممهدة بطبيعة الحال ، وكانت هناك رائحة رطوبة قوية ، تنبعث من كل ما حوله ، ممتزجة برائحة عطنة ، وكأنما ماتت عشرات النباتات داخل الكهف ..

ويا له من موقف !..

التراجع ليس مأمونًا ، فى وجود (أندروفيتش)

ورجاله المسلحين ، والتقدم أمر محفوف بالخطر ، ما دام لا يرى طريقه ، أو يعرف ما قد ينتهى به مساره ، و ...

وفجأة ، دوى ذلك الانفجار ..

دوى فى عنف ، وتردد صداه داخل الكهف فى قوة ، كادت تنسف أذنيه ، وانطلقت موجة تضاغطية قوية ، دفعت (أدهم) أمامها لمترين كاملين ، قبل أن يسقط أرضًا ، وهو يدور حول نفسه ، ليتلقى الصدمة بظهره ، حاميًا جسد (جيهان) ..

ومع ارتطام ظهره بالأرض ، ارتفع هدير الصخور ، التى انهارت لتسد مدخل الكهف ، وتحجب آخر مصدر للضوء والهواء ..

ولدقيقة كاملة ، تواصل انهيار الصخور ، وتصاعدت الأتربة فى غزارة داخل الكهف ، حتى إنه كتم أنفاسه ، ووضع يده على أنف (جيهان) ، ليمنعها من استنشاق تلك الأتربة ..

وعلى الرغم من هذا ، راحت (جيهان) تسعل فى ضعف ، وتناثرت قطرات الدم من بين شفتيها الشاحبتين ، فشعر هو بها على وجهه ، وتمتم فى أسى :

- معذرة يا زميلتى العزيزة .. إننى أبذل قصارى جهدى ، ولكن ..

لم يستطع إتمام عبارته ، مع شعوره بالأسى والألم ، ورفع عينيه محاولاً التطلّع إلى ما حوله ، ولكن الظلمة المحيطة به كانت قد تضاعفت عشرات المرات ، دون أدنى بصيص من الضوء ، حتى لقد بدت أشبه بظلمة القبور ..

أو أشدّ ظلمة ..

وفى بطء ، نهض (أدهم) ، حاملاً (جيهان) ، وغمغم :

- يا له من موقف يا (أدهم) !.. هأنذا داخل قبر مغلق ، لا يمكنك أن ترى فيه ما يبعد عن عينك سنتيمترًا واحدًا ، وليس أمامك مخرج واحد منه ، وزميلتك تلفظ أنفاسها الأخيرة بين ذراعيك .. يا له من موقف !

وتحرّك فى حذر ، متحسّسًا طريقه فى صعوبة ، وهو يتابع :

- المشكلة أنك لا تدرى حتى أين أنت ، ولا ما الذى ينبغى أن تفعله فى هذا القبر .. بل ولا تعرف

حتى إلى أين تتجه ، ولا ...

بتر حديثه بغتة ، وهو يعقد حاجبيه فى شدة ، ويرهف سمعه فى توتر بالغ ..

هناك شىء ما يتحرّك داخل المكان ..

شىء ما ، يزحف فى قلب الظلمة ..

على بعد عشرة أمتار ..

وإلى اليسار ..

هذا كل ما رصدته أذناه الحساستان ، اللتان ازدادت حساسيتهما مع الإظلام التام حوله(*) .

وكل ما يكفى لإثارة توتره وعصبيته ..

وانطلق عقله يبحث عن تفسير لتلك الحركة ، فى قلب الظلام ..

إنها ليست زحفًا مستمرًّا ..

أو حتى حركة منتظمة ..

(*) حقيقة علمية ، فعندما يفقد الإنسان إحدى حواسه الخمس ، البصر ، أو الشم ، أو السمع ، أو اللمس ، أو الكلام ، بصفة دائمة أو مؤقتة ، تتضاعف قدرة الحواس الأخرى تلقائيًا ، بحيث يمكنه الاستعاضة بها عن الحاسة أو الحواس المفقودة .

إنها تحركات مترددة ، حذرة ، لحيوان أو كائن ما ، يسير على قائمين ..

كائن يمكنه السير منتصبًا ..

كالدب مثلاً(*) ..

حبس (أدهم) أنفاسه ، وهو يراجع معلوماته عن الدببة ، ويعود للالتصاق بجدار الكهف ..

ومرة أخرى ، تحرك ذلك الشىء ..

وفى اتجاهه مباشرة ..

وفى هذه المرة ، أيقن (أدهم) أن هذا الشىء ليس دبًا ..

لقد تحرك بإيقاع منتظم ، يختلف كثيرًا عن إيقاع حركة حيوان ضخم مثل الدب ..

ومازال يتحرك نحوه ، و ...

وفجأة ، سعلت (جيهان) فى تهالك ..

ومع سعالها ، توقف ذلك الشىء عن الحركة بغتة ..

(*) الدب : حيوان ثديى ، من الفصيلة الدبية ، رتبة اللواحم ، يستوطن نصف الكرة الشمالى ، الفرو سميك أشعث ، والذيل قصير ، وبعض الدببة سريع العدو ، وبعضها يستطيع تسلق الأشجار ، تأكل الثمار والحشرات والأسماك والجيف ، وقليلاً ما تأكل لحوم الثدييات .

لقد شعر بوجودهما ، كما شعر هو بوجوده ..

وتضاعف توتر الموقف أكثر وأكثر ..

وران على المكان صمت رهيب ..

ثقيل ..

مخيف ..

صمت طال لدقائق خمس ، بدت فى ظلمة المكان كدهر كامل ..

ولم يرق هذا الموقف لـ (أدهم) ..

لم يرق له أبدًا ..

إنه لن يقف صامتًا هكذا إلى الأبد ..

لابد أن يحطم حاجز الصمت ..

والخوف ..

لذا فقد تحرك فى بطء وحذر ..

ومع تحركه ، ندت من ذلك الشىء حركة عصبية ، قبل أن يندفع نحوه فى حدة ، وكأنما اتخذ قراره بالانقضاض عليه أخيرًا ..

وبسرعة ، مال (أدهم) جانبًا ، وكأنما يتفادى شبحًا خفيًا ، وتحرك فى توتر زائد ، محاولاً تحديد موضع ذلك الشىء ، و ...

وفجأة ، ارتطم به فى عنف ..

ومع الارتطام ، انبعثت صيحة مكتومة من ذلك الشىء ..

وتعرَّف (أدهم) طبيعته على الفور ..

وكانت مفاجأة ..

مفاجأة حقيقية ..

ومدهشة .

★ ★ ★



٩ - بلا أمل ..

جرت أصابع البروفيسير (دى مال) على أزرار الكمبيوتر ، فى معمله الخاص ، داخل منشأة السنيورا النووية ، وراحت المعادلات تتراص أمامه على الشاشة ، استعدادًا لإنتاج أوَّل قنبلة نووية ، فى مشروع السيطرة العالمى الجديد ، بعد أن اكتمل فريق العمل ، بوصول البروفيسير (بولانسكى) ، وتابعها هو ببصره بضع دقائق ، قبل أن تتوقَّف أصابعه عن العمل بغتة ، ويغمغم فى ضيق :

- خطأ ..

ثم تراجع عن الكمبيوتر ، مكررًا بصوت كالصراخ :

- خطأ .. خطأ ..

وهبَّ من مقعده فى حركة حادة ، وراح يدور فى المعمل كأسد حبيس ، وهو يتابع فى ثورة شديدة :

- لا يمكننى أن أشارك فى عمل كهذا .. مستحيل !.. مستحيل !.. ليس أنا ..

وانطلقت من حلقه صرخة هائلة ، تكرَّر :

ـ ليس أنا .

كان من الواضح أن الرجل على وشك الإصابة بانهيار عصبى حاد ، وأنه لم يعد يحتمل الاستمرار فى عمل يرفضه ، لذا فقد اندفع نحو جهاز الكمبيوتر مرة أخرى ، وراح ينتزع أسلاك وحدة تخزين المعلومات ، قائلاً :

ـ لا .. ليس (دى مال) ، الذى يسهم فى إذلال العالم ، وإخضاعه لسيطرة شيطانة كهذه .. لقد ناضلت كثيرًا فى سبيل الحرية ، حتى إننى رأست يومًا لجنة الحريات فى (باريس) ، وقاتلت لمنع انتشار الأسلحة النووية ، فكيف يأتى يوم أكون فيه أحد أطراف مؤامرة ، لإعادة العالم إلى عصر الاستبداد والعبودية ؟! كيف ؟!

وتألقت عيناه ببريق ثائر ، وهو يتابع :

ـ لا .. فلتقتلنى السنيورا لو أرادت ، ولكنها لن تجبرنى على خيانة وطنى ومبادئى قط .

قالها ، وهو يرفع وحدة تخزين المعلومات عاليًا ، ويهمّ بتحطيمها فى عنف ، و ...

« من قال إن السنيورا تنوى قتلك يا بروفيسير ؟! »

انبعث صوتها الأنثوى بغتةً فى المكان ، على نحو جعل جسده كله ينتفض فى قوة ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، فاحتضن وحدة تخزين المعلومات ، وهو يقفز مذعورًا ، ويهتف :

ـ رباه !.. السنيورا ؟!

أتاه صوتها الصارم ، يقول :

ـ نعم .. السنيورا يا (دى مال) .. السنيورا التى وصفتها منذ لحظات بأنها شيطانة .

انكمش (دى مال) على نفسه لحظةً فى ذعر ، ثم لم يلبث أن استعاد غضبه وذعره دفعةً واحدة ، فهتف ، وهو يتلفّت حوله ، بحثًا عن مصدر الصوت :

ـ نعم .. أنت شيطانة .. شيطانة مريدة ، حتى ولو أغضبك هذا .

انطلقت منها ضحكة مجلجلة ، ردّدت جدران المعمل صداها ، حتى بات من المستحيل تحديد مصدرها ، قبل أن تقول ، فى شىء من الجذل :

ـ يُغضبنى ؟! ومن أخبرك أن تشبيهى بالشيطان يُغضبنى يا عزيزى ؟ إننى على العكس ، أجد أننا متشابهان فى أمور شتى .. فكلانا يبهرك بما تعجز عن مقاومته .

ومع آخر حروف كلماتها ، انفتح باب معمله وبدت هى على عتبته فى زى أنيق ، يكشف عن استدارة كتفيها وجمال ساقيها ، على نحو أشبه بفتنة مجسّمة ، وخاصة مع تلك الابتسامة الساحرة على شفتيها الجميلتين ، والبريق الأخّاذ فى عينيها الواسعتين ..

ولثوان ، حدّق (دى مال) فيها فى انبهار ، إلا أنه لم يلبث أن استعاد السيطرة على مشاعره ، وقال فى عصبية :

- لو تصوّرت أنه يمكنك إغرائى ، فسوف ..

قاطعته ، وهى تتقدّم داخل المعمل بخفة :

- إغراؤك ؟! خطأ يا (دى مال) .. إننى لم أحاول حتى أن أفعل .

وجلست فى نعومة على أحد المقاعد ، وتطلّعت إليه بعينيها الساحرتين ، متابعة :

- ليس لأننى أخشى أن أفشل فى هذا ، ولكن لأننى أعلم أن إغراءك ليس الوسيلة الصحيحة للسيطرة عليك .

بُهت لكلماتها ، فتطلّع إليها لحظة فى صمت ، على نحو جعلها تتابع ، وهى تشعل سيجارتها فى بطء :

- التحريات التى جمعتها عنك ، أثبتت أنك رجل

قوى ، لا تخضع لنزوات الجسد ، أو لشهوة المال .

ثم نفثت دخان سيجارتها فى وجهه ، وأطلقت ضحكة عابثة ، قبل أن تتابع :

- ولكن هذا لا يعنى أنك رجل بلا نقاط ضعف .. كل شخص فى الدنيا له نقاط ضعف ، وأنا أجيد البحث عنها فى كل من أتعامل معه ، حتى يمكننى العزف على أوتاره بالنغمة المناسبة ..

وصمتت لحظة أخرى ، لتسحب نفسًا من سيجارتها ، على نحو جعله يتصوّر أنها تسحب هواء الحجرة كله معها ، فسعل بحركة لا إرادية ، وهى تواصل :

- (استروتيسكى) مثلاً يشعر بالإهمال والتجاهل ، منذ هجرته إلى (إسرائيل) ، لذا فقد منحته هنا شعورًا بالأهمية ، وأسندت إليه رياسة فريق العمل ، و (جولهى) يعبد المال ، بحكم نشأته اليهودية ، وعبيد المال من أسهل الأشخاص ، الذين يمكنك السيطرة عليهم ، أما (بولانسكى) ، فحبه للنساء ولهفته عليهن ، جعلنى أضمن ولاءه منذ اللحظة الأولى ، دون أدنى تعب أو مجهود .

وتطلّعت إليه مباشرة ، مستطردة :

- لم يتبق أمامى إذن سواك يا (دى مال) .

أشار إليها (دى مال) ، قائلاً فى عصبية :

- أنت قلتها بنفسك يا سنيورا .. لن يمكنك إخضاعى بأى من تلك الوسائل الثلاث ، فلن يغرينى المال ، أو تبهرنى النساء ، ولست من محبى السيطرة والسطوة .

ابتسمت على نحو لم يرق له ، وهى تقول :

- ولكننى مضطرة لإيجاد وسيلة جيدة ، للسيطرة عليك ، وإلا فشل مشروعى كله ، وأنت تعلم أننى غير مستعدة لخسارة كل هذا .. بل إننى أبغض الخسارة بكل صورها .

شدَّ (دى مال) قامته ، وهو يقول فى حزم :

- حاولى تقبلها هذه المرة يا سنيورا ، فقد اتخذت قرارى بعدم المشاركة فى هذا العمل البغيض ، حتى ولو دفعت حياتى ثمنًا لهذا .

رفعت أحد حاجبيها ، قائلة فى شىء من السخرية :

- وماذا عن حياة الآخرين ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وسرى فى جسده توتر لا محدود ، وهو يقول :

- ماذا تعنين ؟!

أطلقت ضحكة طويلة ، احتقن لها وجهه فى شدة ، قبل أن تنهض من مقعدها ، وتلقى سيجارتها على الأرض ، وتسحقها بقدمها ، قائلة :

- لقد أخبرتك أننى لست مستعدة للفشل والخسارة ، مهما كان الثمن .

اندفع نحوها ، وأمسك ذراعها فى عصبية ، صائحًا :

- ماذا تعنين بقولك هذا ؟!

استدارت إليه السنيورا بحركة سريعة ، وقبل أن يدرك ما تفعله ، وجد معصمه يلتوى ، وذراعه تدور خلف ظهره ، ثم شعر بجسده كله يرتفع ، ثم يهوى لتضرب رأسه الأرض فى عنف ، فتأوَّه بقوة ، ولكن جذبة قاسية كتمت تأوهاته ، وجعلته يحدِّق فى وجه السنيورا بعينين زائغتين ، وعقل يدور فى جمجمته كالرحى ، وبدا له صوتها صارمًا قاسيًا ، يخترق أذنيه بلا رحمة ، وهى تقول :

- إياك أن تفعلها مرة أخرى يا (دى مال) .. إياك أن تتصوَّر أننى مجرَّد أنثى ضعيفة ، يمكنك أن تضربها أو تسىء معاملتها ، لمجرَّد أنك رجل .. إياك .

لوَّح بذراعه فى ضعف وألم ، وهو يتمتم :

- لم يخطر هذا ببالى قط .. فقط سألتك ماذا كنت تعنين بعبارتك !

مالت نحوه أكثر ، حتى شعر بأنفاسها على وجهه ، وهى تقول :

- هل تريد أن تعرف ما كنت أعنيه بعبارتى ؟! حسنٍ يا (دى مال) .. الذى كنت أعنيه هو أنك أيضًا مجرَّد شخص عادى ، له نقاط ضعف كغيره من البشر .. ربما لا تكون نقطة ضعفك هى المال ، أو السلطة ، أو النساء ، ولكنها موجودة ..

وتألقت عيناها ببريق وحشى ، مع صوتها المخيف ، وهى تقترب من عينيه أكثر ، وتقول :

- (برجيت) .

اتسعت عيناه فى ارتياع شديد ، فتراجعت فى هدوء ، وتابعت :

- ابنتك (برجيت) .

ارتجفت شفتاه ، وهو يتمتم :

- كيف .. كيف عرفت ؟

نهضت واقفة ، وانطلقت من أعمق أعماقها ضحكة مجلجلة صاخبة ، تموج بالظفر والزهو ، وهى تلتقط سيجارة أخرى ، وتشعلها ، قائلة :

- أنت تشعر بالدهشة .. أليس كذلك ؟! قليلون هم من يعلمون بأمر ابنتك غير الشرعية ، ذات السبعة عشر ربيعًا ..

كاد صوته يبكى ، وهو يقول :

- أرجوك .. اتركى (برجيت) .. لا شأن لها بهذا .. دعيها وشأنها .

أطلقت ضحكة أخرى ساخرة عالية ، ولوَّحت بكفها ، قائلة :

- هذا يتوقَّف عليك يا بروفيسير .

قالتها ، وغادرت المكان فى هدوء عجيب ، وهو يتابعها بنظرات زائغة ، وأنفاس مبهورة ، حتى أغلقت الباب خلفها ، فتدفَّقت الدموع من عينيه ، وهو يقول منهارًا :

- (برجيت) لا شأن لها بكل ما يحدث !

وفى استسلام ذليل ، نهض يحمل وحدة تخزين المعلومات ، ويعود بها إلى مائدة الكمبيوتر ، وأعاد توصيلها فى إحكام ، ثم جلس يواصل معادلاته وعمله ، والدموع تغرق وجهه كله ..

دموع المرارة ..

والاستسلام ..

* * *

فى نفس اللحظة ، التى ارتطم فيها (أدهم) بهذا الشىء ، تحرَّك جسده فى سرعة وتزامن مدهشين ..

كان يحمل (جيهان) على ذراعيه ، لذا فقد تحرَّكت قدماه فى تتابع رائع ، فوثبت الأولى تدفع ذلك الشىء بعيدًا ، ثم قفزت الثانية تركله فى قوة ، و ...

وانطلقت صرخة فى قلب الكهف ..

صرخة تجمع ما بين الألم والذعر ..

صرخة بشرية ..

وفى دهشة حقيقية ، هتف (أدهم) :

- من أنت ؟!

نطقها بالعربية ، ثم انتبه إلى أن ذلك الشخص العجيب ، فى قلب الكهف المظلم ، لن يمكنه حتمًا فهمها ، فكرَّرها بالبرتغالية فى صرامة ، ولم يكد يفعل ، حتى أتاه صوت مضطرب مذعور ، يقول :

- أ .. أنا (بترو) .. أأنت بشرى ؟!

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول :

- بالطبع يا رجل .. من أنت بالضبط ؟!

مضت لحظة من الصمت ، سمع (أدهم) بعدها صوت عود ثقاب ، يحتكّ بجانب علبته ، ثم انبعث

بصيص من الضوء بغتة داخل المكان ، ليكشف زنجيًا ضخم الجثة ، غليظ الملامح ، حدَّق فى (أدهم) لحظة ، قبل أن يقول فى ارتياح :

- رباه !.. أنت حقًا بشرى .

التهمت النيران عود الثقاب بسرعة ، والرجل يحدِّق فى وجه (أدهم) ، وفى (جيهان) ، حتى لسعت النيران سبابته ، فأطلق صرخة مكتومة ، وسقط عود الثقاب من يده ، فعاد الظلام يسود المكان ، و(أدهم) يكرِّر سؤاله فى صرامة :

- من أنت يا (بترو) ؟ وماذا تفعل هنا ؟!

أجابه الزنجى ، وهو يُشعل عود ثقاب آخر :

- أنا سائق .. مجرَّد سائق فى شركة للبناء ، كانت تفكِّر فى تمهيد (كوهيدو، بيليجرو) وإضاءته ، ولكن العاصفة فاجأتنى هنا ، ولم أستطع العودة ، وخاصة بعد تلك الانهيارات الصخرية ، التى سدَّت الطريق .

سأله (أدهم) :

- إذن فأنت صاحب ذلك الحفَّار .. أليس كذلك ؟!

أومأ (بترو) برأسه فى توتر ، قبل أن يجيب :



ثم انبعث بصيص من الضوء بغتة داخل المكان ، ليكشف زنجيًا ضخم الجثة ، غليظ الملامح ، حدّق فى (أدهم) لحظة ..

- بلى يا سنيور .. الحفّار ملك للشركة ، ولكنى أقوده منذ ثلاث سنوات ، و ...

قاطعه (أدهم) فى صوت حاسم :

- معذرة يا (بترو) ، ولكن ليس لدينا وقت الآن لسماع قصة حياتك .. أخبرنى أولاً .. أهناك مخرج آخر لهذا الكهف .

ساد الظلام مرة أخرى ، عندما انطفأ عود الثقاب الجديد ، و (بترو) يجيب :

- لست أدرى .

هتف (أدهم) مستنكرًا :

- لست تدرى ؟! ما الذى وضعك داخله إذن ؟!

ارتجف صوت الزنجى فى الظلام ، وهو يغمغم :

- الخوف .

لم يكن الجواب يتناسب قط مع ضخامة الرجل وقسوة ملامحه ..

إلا أن هذا لم يدهش (أدهم) ..

عمله الطويل ، وخبراته اللانهائية ، جعلته يدرك جيدًا أنه لا علاقة مطلقًا ، بين الحجم والقوة ..

أو بين الحجم والشجاعة ..

لذا فقد تجاهل جواب الزنجى ، وهو يقول فى توتر :
- فليكن .. المهم أن نعثر على مخرج من هذا القبر بأسرع ما يمكن ، فزميلتى تحتاج إلى إسعاف عاجل .
غمغم (بترو) فى دهشة :
- زميلتك ؟!
ثم أشعل عود ثقاب آخر ، وانحنى على ضوئه ، يلقى نظرة على وجه (جيهان) ، وهتف :
- أى إسعاف يا رجل .. إنها ميتة تقريبًا .
انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول فى صرامة :
- ولكنها لم تمت بعد .
ثم التقط علبة الثقاب من يد (بترو) ، وهو يدفع إليه (جيهان) ، قائلاً :
- لذا فاحرص على حملها كالأحياء :
أسرع (بترو) يحمل (جيهان) فى حرص ، وهو يقول :
- كما تأمر يا سنيور .
أشعل (أدهم) عود ثقاب جديدًا ، وتأمَّل المكان على ضوئه الخافت ، ثم قال فى قلق حقيقى :
- يبدو أنه كهف مغلق بحق ، فلست أرى أية فتحات حولنا ، باستثناء تلك التى أغلقها الانفجار .

قال (بترو) فى خوف :
- يمكننا أن نزيح الصخور عنها .
هزَّ (أدهم) رأسه نفيًا ، وقال :
- هذا سيستغرق وقتًا كبيرًا ، ثم إننا لا ندرى ما الذى ينتظرنا خلفها .
تردَّد (بترو) لحظة ، ثم قال فى حذر :
- أتقصد هؤلاء الرجال ، أصحاب الهليوكوبتر .
سأله (أدهم) :
- آه .. أهم سبب خوفك ، واختبائك فى هذا الكهف ؟!
صمت (بترو) قليلاً ، قبل أن يجيب :
- لقد أخافنى أسلوبهم بالتأكيد ، ولكن عملى فى شركات البناء والحفر جعلنى أعتاد أصوات الانفجارات ، أما دوى الرصاصات ، فهو أمر مألوف حيث أقيم .
سأله (أدهم) ، وهو يشعل عود ثقاب آخر ، ويواصل بحثه عن مخرج :
- عجبًا !.. ما الذى أخافك إذن ؟!
ازدرد (بترو) لعابه فى صوت مسموع ، ثم أجاب فى صوت خافت ، وكأنما يخشى أن يسمعه أحد :
- الوطنيون .

التفت إليه (أدهم) ، قائلاً فى دهشة :

ـ أى وطنيين ؟!

أجابه الرجل فى توتر شديد :

ـ سكان الأدغال الأصليون .

سأله (أدهم) ، وهو يشعل عود ثقاب آخر ، ويواصل البحث :

ـ عجبًا ! ألم ينقرض هؤلاء القوم ، أو يندمجوا فى الحياة المدنية الحديثة بعد ؟!

أجابه (بترو) بسرعة :

ـ ليس فى هذه المنطقة يا سنيور .. إنها أشدّ مناطق الأدغال وحشة ووعورة ، والجبال مع (كوهيدو، بيليجرو) يمنعان المدنية من بلوغها ، وسكانها الأصليون ما زالوا يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم البدائية القديمة ، وبوحشيتهم أيضًا ، فهم عدوانيون ، شرسون ، لا يتقبلون الغرباء أبدًا ، والمصير الوحيد لكل من يقع فى قبضتهم هو الموت .. الموت وحده ، وطريقتهم فى القضاء على خصومهم بشعة ، مخيفة ، و ...

قاطعه (أدهم) بهتاف مفاجئ :

ـ (بترو) .. انظر إلى ذبابة عود الثقاب .

أدار الزنجى عينيه فى سرعة إلى اللهب المتراقص على عود الثقاب ، والذى يذبل تدريجيًا ، ويكاد يبلغ سبَّابة (أدهم) وإبهامه ..

ولكنه لم يفهم ما يعنيه (أدهم) بهتافه هذا ..

لم يفهم أبدًا ..

★ ★ ★

« هل تعتقد أننا قضينا عليهما بالفعل أيها القائد ؟! »

ألقى (كوادروس) سؤاله فى اهتمام بالغ ، وهو يعود مع الجميع إلى الهليوكوبتر ، فتوقَّف (أندروفيتش) عن مواصلة السير ، والتفت إليه ، يسأله فى صرامة :

ـ ماذا تعنى يا رجل ؟!

هرش (كوادروس) رأسه ، قائلاً :

ـ أعنى أننا لا نعرف شيئًا عن أعماق ذلك الكهف ، وربَّما ..

قبل أن يكمل عبارته ، أشار إليه (أندروفيتش) فى حزم ، قائلاً :

- كفى .

وانعقد حاجباه فى شدة لبعض الوقت ، قبل أن يستعيد بروده وصرامته ، وهو يشير إلى الرجال ، قائلاً :

- لن نرحل الآن .

سأله (كوادروس) فى اهتمام :

- ماذا سنفعل أيها القائد ؟!

أشار (أندروفيتش) إلى الصخرة الكبيرة ، قائلاً :

- سنرفع الصخور المنهارة ، عند مدخل الكهف .

هتف أحد الرجال فى دهشة بالغة :

- ماذا ؟!

أجابه (أندروفيتش) فى صرامة :

- كما سمعت يا رجل .. سنرفع الصخور التى صنعتها قنبلتنا .

اتجه الرجال فى تبرُّم إلى مدخل الكهف ، وراحوا يرفعون الصخور فى سخط ، فمال (كوادروس) على (أندروفيتش) ، قائلاً :

- رفع الصخور كلها سيستغرق وقتًا طويلاً أيها القائد .

أجابه (أندروفيتش) ، وهو يتابع عمل الرجال فى اهتمام :

- لسنا نحتاج إلى رفع الصخور كلها .

تطلَّع إليه (كوادروس) فى حيرة ، وتنهَّد فى عمق ، قبل أن يقول :

- ليتنى أفهم ما تفكِّر فيه أيها القائد .

لمح شبح ابتسامة على شفتى (أندروفيتش) ، وهو يقول :

- ستحتاج إلى ألف قرن يا (كوادروس) .

انعقد حاجبا (كوادروس) ، وهو يهرش رأسه فى حيرة ، ويبذل قصارى جهده ، محاولاً الفهم ، ثم لم يلبث أن طرح فكرة الفهم هذه جانبًا ، وسأل :

- إذن فأنت تحتاج مدخلاً صغيرًا إلى الكهف فحسب .

أجابه (أندروفيتش) فى برود :

- بالضبط .

أدرك (كوادروس) عدم جدوى الحديث مع الروسى ، فأطبق شفتيه فى ضيق ، ووقف يتابع عمل الرجال بدوره ، حتى هتف أحدهم :

- هناك مدخل إلى الكهف .

تألَّقت عينا (أندروفيتش) ، وهو يتجه إلى المدخل ، قائلاً :

- عظيم .

كان الرجال قد أزالوا قدرًا ضئيلاً من الصخور ، صنع فجوة نصف قطرها عشرة سنتيمترات فحسب ، ولكن (أندروفيتش) تطلَّع إليها ، قائلاً :

- عظيم .. إنها تكفى .

سأله (كوادروس) :

- تكفى لماذا ؟!

أجابه (أندروفيتش) فى صرامة :

- سترى .

ثم عاد إلى الهليوكوبتر ، والتقط منها صندوقًا صغيرًا ، فتحه أمام (كوادروس) ، والتقط منه قنبلتين من نوع خاص ، والتقط المدفع الآلى من يد أحد الرجال ، فسأله (كوادروس) فى اهتمام ، وهو يتطلَّع إلى القنبلتين :

- ماذا ستفعل بهما بالضبط ؟!

أجابه (أندروفيتش) ، وهو يدفع قضيبًا رفيعًا ، يمتدّ من إحدى القنبلتين ، داخل فوهة المدفع الآلى :

- إنها قنابل من طراز خاص يا رجل ، يتركَّز فتيل تفجيرها داخل ذلك القضيب الرفيع ، والوسيلة الوحيدة لإطلاقه هى رصاصة من المدفع ، تضرب قضيب التفجير ، فتنطلق القنبلة لمسافة كبيرة ، وتنفجر بطاقة تفوق طاقة القنبلة اليدوية ثلاث مرات على الأقل .

هتف (كوادروس) مبهورًا :

- إلى هذا الحد ؟!

أمسك (أندروفيتش) المدفع الآلى فى حزم ، قائلاً :

- هل ترغب فى مشاهدة تجربة عملية ؟

أجابه فى حماس :

- بالتأكيد ..

تألَّقت عينا الروسى ، وهو يقول :

- فليكن يا (كوادروس) .. سترى ما يبهجك .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع صوت صارم ، يقول :

- أيديكم إلى أعلى أيها السادة .

استدار (أندروفيتش) فى سرعة إلى مصدر الصوت ، ووقع بصره على المفتش (باندرياس) ،

مع فريق من رجال الشرطة ، يصوبون إليه وإلى رجاله مدافعهم الآلية ، والمفتش يتابع بنفس الصرامة :

ـ أعتقد أن لديكم أجوبه للعديد من تساؤلاتنا ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، أدار (أندروفيتش) فوهة مدفعه الآلى نحوه ، وهتف :

ـ اذهب إلى الجحيم .

ومع الحرف الأوَّل من عبارته ، ضغط زناد المدفع الآلى ..

وانطلقت القنبلة ..

وقبل أن تكتمل العبارة ، كانت تنفجر وسط (باندرياس) ورجاله ..

وفى نفس لحظة انفجارها ، صرخ (أندروفيتش) فى رجاله :

ـ أطلقوا النار .

وتحوَّل المكان فى لحظة واحدة إلى ساحة قتال ..

(باندرياس) ، الذى نجا من الانفجار ، مع ثلاثة من رجاله ، راحوا يطلقون رصاصاتهم نحو

(أندروفيتش) ورجاله ، الذين انطلقت رصاصات مدافعهم الآلية كالمطر ..

وفى سرعة يلهبها الغضب ، التقط الروسى القنبلة الثانية ، وهو يعدو نحو مدخل الكهف ، هاتفًا :

ـ لن أخسر المعركة الآن .. مهما كان الثمن ..

واحتمى بالصخرة الضخمة ، وهو يثبت القنبلة فى فوهة المدفع الآلى ، ويقول :

ـ فى هذه المرة ستذهب إلى الجحيم حتمًا يا (أدهم صبرى) .

ودفع القنبلة مع فوهة المدفع الآلى ، عبر الفجوة ، وضغط الزناد ، هاتفًا :

ـ وبلا رحمة .

وانطلقت القنبلة إلى أعماق الكهف ..

وارتطمت بجداره ، و ..

وانفجرت ..

ومع انفجارها الهائل ، تحوَّل الكهف إلى قطعة من الجحيم ..

جحيم لا يمكن أن يحيا فى أعماقه بشرى واحد ..

لا يمكن أبدًا .

★ ★ ★

١٠ - الجحيم ..

دقت الساعة معلنة تمام الثانية ظهرًا بتوقيت (القاهرة)(*) ، وبدت دقاتها أشبه بقرع الطبول ، فى آذان رجال المخابرات المصرية ، الذين التفوا حول مائدة الاجتماعات ، فى أحد مبانى جهاز المخابرات ، منذ أكثر من خمس ساعات ، متصلة ، يتابعون الموقف فى نقاط عديدة من العالم ، وبدا الإرهاق واضحًا على وجه أحدهم ، وهو يمنع نفسه من التثاؤب فى صعوبة ، مغمغمًا :

- ما زال الموقف عصيبًا للغاية يا سيدى المدير ، ولم تصلنا أية أخبار من سيادة العميد (أدهم) ، أو الرائد (جيهان) ، منذ بدأنا اجتماعنا هذا ، ولا يمكننا اتخاذ أية قرارات ، قبل الحصول على معلومات جديدة .

(*) التوقيت فى (القاهرة) يسبق التوقيت فى كل من شرقى (أمريكا الشمالية) و(أمريكا الجنوبية) بسبع ساعات كاملة .

قال مدير المخابرات ، وهو يشير إلى خريطة كبيرة لـ (البرازيل) :

- آخر ما وصلنا من أخبار عن (ن - ١) ، هو أنه وزميلته قد نجحا فى استعادة البروفيسير (مانهايم) ، بعد صراع عنيف مع رجال السنيورا ، واتجها به إلى ممر (بليجيرو) هذا ، فى محاولة للفرار من (ريودى جانيرو) ، وبلوغ (برازيليا) حيث يقع مكتبنا .

قال أحد الرجال فى توتر :

- ومن الواضح أن العاصفة قد حاصرتهم داخل الممر .

أومأ المدير برأسه موافقًا ، وهو يقول :

- بالضبط .. وهى عاصفة عاتية ، لم تشهد تلك المنطقة مثلها منذ قرن كامل ، ولقد أعلنت حالة الطوارئ القصوى فى كل المدن الساحلية ، وبالذات (ريودى جانيرو) ، حيث بلغت العاصفة ذروتها .. وعندما طرحنا الأمر على خبراء الأرصاد الجوية عندنا ، أفتوا بأن سرعة الرياح داخل ممر ضيق ، مثل ممر (بيليجرو) ، قد تبلغ أكثر من ألف

وخمسمائة كيلومتر فى الساعة ، عند أعلى منحنى العاصفة ، وهذه سرعة هائلة ، لا يمكن أن يصمد أمامها بشرى ، مهما بلغت قوته ، لأكثر من عشرين دقيقة .

تبادل الرجال نظرة شديدة التوتر ، قبل أن يقول أحدهم فى قلق :

- سيِّدى .. هل يعنى هذا الكلام أن سيادة العميد (أدهم) ، قد ...

قاطعه المدير فى حزم :

- هذا الكلام لا يعنى شيئًا يا رجل .. تذكَّر ما تعلمته ، عند التحاقك بجهاز المخابرات .. نحن لا نتعامل إلا مع الحقائق المجرَّدة ، دون انفعالات أو تفاؤلات .

ومطَّ شفتيه لحظة ، ثم تابع :

- الموقف الآن يحتمل كل الافتراضات ، فقد ينجح (ن - ١) وزميلته فى اختراق ممر (بيليجرو) ، على الرغم من عنف العاصفة ، ويواصلان رحلة فرارهما بالبروفيسير (مانهايم) ، أو يفشلان فى التصدِّى لقوى الطبيعة .. الاحتمالان واردان ، وليس أمامنا سوى دراسة كل منهما على حدة ، وعلى أية

حال ، لا شىء يمكننا فعله فى الوقت الحالى ، سوى أن نمنح (ن - ١) فرصة مناسبة ، حتى يمكنه الاتصال بنا ، وإبلاغنا بما حدث من تطورات ، فربما يؤدى تدخلنا إلى إفساد الأمر كله .

قال (أدهم) :

- ولكن ماذا لو ...

لم يستطع إتمام سؤاله ، إلا أن الجميع فهموا ما يعنيه جيدًا ، وخصوصًا المدير ، الذى أشار بيده ، قائلاً :

- حتى بافتراض أن (ن - ١) قد لقى مصرعه داخل الممر ، فهذا سيعنى أن زميلته والبروفيسير (مانهايم) سيلقيان المصير نفسه على الأرجح ، وهنا ستكون السنيورا قد فقدت خبير الهندسة النووية ، الذى تبحث عنه ، ولن يمكنها عندئذ إتمام مشروعها النووى .

طالع أحد الرجال آخر البرقيات ، الواردة من مختلف أنحاء العالم ، قبل أن يقول :

- معذرة يا سيادة المدير ، ولكن هناك خبر من (روسيا) ، قد يعنى الكثير ، وقد لا يعنى شيئًا على الإطلاق .

سأله المدير فى اهتمام :

- وما هو ؟!

أجابه الرجل على الفور :

- حادثة إعدام مباغتة ، فى معتقل (سيبيريا) ، تم تصدير كل المستندات الخاصة بها إلى القيادة فى (موسكو) ، بعد ساعة واحدة من وقوعها ، وهذه هى المرة الأولى ، التى يتمّ فيها هذا الأمر ، مع كل الاهتمام البالغ ، فالمستندات تُرسل فى المعتاد ، بعد أسبوعين أو ثلاثة .

تراجع مدير المخابرات فى مقعده ، وهو يسأله :

- وما الذى يمكن أن يعنيه هذا فى رأيك ؟

قال الرجل ، وهو يراجع البرقية :

- قبل أن نجيب هذا السؤال ، ينبغى أن تعرفوا أولاً هوية الشخص ، الذى لقيت مستندات إعدامه كل هذا الاهتمام .

وأشار إلى أوراقه ، وهو يدير عينيه فى وجوههم ، مضيفًا فى حزم :

- اسمه البروفيسير (ديوك بولانسكى) .. خبير الهندسة النووية .

بدت الدهشة على وجوه الجميع ، وهتف أحدهم :

- ولكن البروفيسير (بولانسكى) فى عداد الأموات بالفعل ، منذ أكثر من ثلاثة أعوام ، طبقًا للبيانات الروسية الرسمية .

أشار إليه المدير ، قائلاً :

- من الواضح أن الرجل ظلّ حيًا ، فى معتقل (سيبيريا) ، حتى ساعات قليلة ، وأن وجوده على قيد الحياة ظلّ سرًا لسبب ما .

اندفع أحد الرجال ، يقول فى انفعال :

- بل هناك ما هو أكثر خطورة .. أن يكون الرجل حيًا ، حتى هذه اللحظة .

بدا الاهتمام على وجوه الجميع ، وانطلقت عقولهم تدرس ذلك الاحتمال ، قبل أن يسأل آخر :

- هل تعتقد أنه هناك صلة ، بين هذه الواقعة ، وخطة السنيورا النووية ؟!

هزّ صاحب الاقتراح كتفيه ، وقال :

- كل الأمور توحى بهذا ؛ فالسنيورا تحتاج ، وبشدة ، لخبير فى الهندسة النووية ، من طراز خاص للغاية ، وطبقًا لمعلوماتنا ، لا يوجد فى العالم

كله سوى ثلاثة علماء ، يمكن أن تنطبق عليهم كل المواصفات ، التى تحتاج السنيورا إليها .. الدكتور (محمد العفيفى) فى (مصر) ، والبروفيسير (مارك مانهايم) فى (ألمانيا) والبروفيسير (ديوك بولانسكى) فى (روسيا) ، وطبقًا للأوراق الرسمية ، كنا نعتبر الأخير فى عداد الأموات ، ونضفى حمايتنا على الأوَّل ، لذا فقد ركزنا اهتمامنا كله على الأوسط ، وعندما يفاجئنا تقرير عاجل من (سيبيريا) ، يشير إلى إعدام (بولانسكى) ، دون أية أسباب معلنة ، أو مبررات منطقية ، ويحرص القائمون على المعتقل على تأكيد هذا الأمر ، وزرعه فى السجلات الرسمية بأسرع ما يمكن ، وعلى نحوٍ يوحى بأنهم يريدون تأكيد الأمر ، وإخلاء مسئوليتهم عنه ، فمن الطبيعى أن يساورنا الشك فى أن وراء الأكمة ما وراءها ، ومن الطبيعى أيضًا أن نتمادى فى هذا الشك ، ونتصوَّر أنه لم تحدث عملية إعدام حقيقية ، وإنما كانت مجرَّد محاولة لمحو اسم البروفيسير (ديوك بولانسكى) من كل الأوراق الرسمية .

سأله أحد زملائه بأنفاس لاهثة :

- ولماذا يفعلون هذا ؟!

أشار صاحب الاقتراح بسبَّابته ، مجيبًا :

- لأن السنيورا تحتاج إلى البروفيسير (بولانسكى) بشدة ، بعد أن عجزت عن الحصول على البروفيسير (مانهايم) ، ولا تريد أن يعلم أحد بما فعلته ، حتى نظلّ نحارب فى سبيل إنقاذ الأخير ، وننشغل عما يقدّمه لها الأوَّل .

ران على المكان صمت مطبق ، بعد أن انتهى الرجل من شرح ما لديه ، وتبادل الجميع نظرات غاية فى التوتر ، قبل أن يقطع المدير ذلك الصمت ، قائلاً :

- افتراض مخيف يا رجل ، ولكنه يحمل الكثير من المنطق ، على الرغم من غرابته ، وهذا يدفعنا حتمًا لدراسته ، والسعى للحصول على ما يحسم أمره من معلومات .

ثم التفت إلى مساعده الأوَّل ، متابعًا :

- أبرق إلى عميلنا فى (موسكو) ، واطلب منه السعى لجمع كل التفاصيل ، الخاصة بإعدام البروفيسير (بولانسكى) فى (سيبيريا) ، واطلب من رجالنا فى (البرازيل) التحرُّك فورًا ، لدعم (ن - ١) ، لو ...

بتر عبارته لحظات ، قبل أن يتابع فى توتر ملحوظ :

- لو أنه ما زال على قيد الحياة .

هبطت العبارة ثقيلة على قلوبهم ومشاعرهم ، إلا أن التدريبات العنيفة ، التى تلقوها ، من الناحيتين ، البدنية والنفسية ، جعلتهم يتجاوزون انفعالاتهم فى سرعة ، ويقول أحدهم فى حزم :

- لو أكدت معلوماتنا أن البروفيسير (بولانسكى) لم يُعدم بالفعل فى (سيبيريا) ، فسيعنى هذا أن السنيورا كان لديها الكثير من الوقت ، لاستقدامه إلى وكرها ، لو أنها فى مكان ما من (أمريكا الجنوبية) كما نتوقع ، وربما يعنى أيضًا أن مخططها النووى قد بدأ بالفعل .

انعقد حاجبا المدير فى شدة ، وهو يقول :

- ويعنى أننا نواجه كارثة أيها السادة .. كارثة بلا حدود .

ومرة أخرى ، عاد الصمت يغلف المكان ، وعادت العيون تتبادل نظرات صامتة ، تحوى ما هو أبلغ من الكلام ..

وفى هذه المرة ، كان الصمت طويلاً ..

وثقيلا ...

للغاية ..

* * *

لثوان ، حدَّق (بترو) فى عود الثقاب ، دون أن يفهم ما الذى ينبغى أن يدركه ، لذا فقد غمغم فى حيرة واضحة :

- ماذا بعود الثقاب ؟! إنه مشتعل ، مثل أى عود ثقاب آخر !

أجابه (أدهم) فى حماس :

- ولكن شعلته الصغيرة تتراقص .

عاد (بترو) يحدَّق فى عود الثقاب ، الذى انطفأ فجأة ، فهرش رأسه وسط الظلام ، وسأل بحيرة أكثر :

- وما الذى يعنيه هذا ؟

أشعل (أدهم) عود ثقاب آخر فى سرعة ، وهو يجيب :

- يعنى أنه هناك تيار من الهواء ، يؤدى إلى تراقص الشعلة .. تيار خفيف ، يأتى من هذا الاتجاه بالتحديد .

قالها ، مشيرًا إلى عكس الاتجاه ، الذى تميل إليه شعلة عود الثقاب ، ثم تحرك نحو البقعة التى أشار إليها ، مستطردًا فى حماس أكثر :

- وتيار الهواء لا يأتى إلا من فتحة ما .

لهث (بترو) من فرط الانفعال ، وهو يهتف :

- هل .. هل تعنى أنه هناك مخرج ما .

أشعل (أدهم) عود ثقاب جديدًا ، وهو يفحص المكان ، مجيبًا .

- بالتأكيد .

ثم هتف فى ارتياح :

- وها هو ذا .

أسرع إليه (بترو) ، حاملاً (جيهان) ، وانحنى ينظر إلى حيث يشير (أدهم) ، ليهتف بدوره :

- آه .. لقد رأيته .. إنه ممر شبه رأسى ، ربما يقود إلى أعلى الجبل على الأرجح .

أجابه (أدهم) فى حزم :

- المهم أنه يقود إلى فتحة ما .

هتف (بترو) فى سعادة :

- عظيم .. رائع .. حمدًا لله .. حمدًا لله .. لم

أكن أتصوَّر أبدًا أن ..

بتر عبارته قبل أن تكتمل ، واتسعت عيناه فى ذعر ، وهو يهتف :

- رباه !.. هل تسمع هذا يا سنيور ؟!

أرهف (أدهم) سمعه بدوره ، وقال :

- بالتأكيد .. إنهم يرفعون الصخور عن المدخل المسدود .

سأله (بترو) مرتعدًا :

- هل تعتقد أنهم نفس رجال العصابة ، أم أنها فرقة جاءت لإنقاذنا ؟!

قال (أدهم) فى حزم :

- وكيف يمكن أن تستنتج فرقة الإنقاذ أننا داخل الكهف ؟! بل كيف يمكن أن تعرف أننا داخل ممر الخطر ؟!

صمت (بترو) لحظات ، ليدير الأمر فى رأسه ، قبل أن يهتف مذعورًا :

- رباه !.. تعال نبتعد عن هنا يا سنيور .. تعال نفر بالله عليك .

قالها ، وهو يحشر نصفه العلوى داخل الممر شبه

الرأسى ، فى ذعر واضح ، فجذبه (أدهم) من كتفه فى قوة ، قائلاً فى صرامة :

- رويدك يا رجل .. لا تجعل الخوف يُفقدك عقلك على هذا النحو .

صاح (بترو) :

- أريد النجاة بحياتى .

أجابه (أدهم) فى صرامة :

- وأنا أيضًا ، ولكن هذه ليست الوسيلة الصحيحة .. ألم تعلمك أيام الجندية قواعد التسلل ، عبر التجاويف المحدودة ؟!

غمغم الرجل فى انبهار :

- كلا .. لم يخبرنا أحد عن هذا .

قال (أدهم) ، وهو يستعيد (جيهان) :

- تعلمها منى إذن .. عندما نعبر تجويفًا مجهولاً ، لابد وأن يبقى الأكثر ضخامة فى الخلف ، حتى لا ينحشر وسط التجويف ، ويسدّ الطريق أمام الآخرين ، وهذا يعنى أننى سأعبر أولاً مع زميلتى ، ثم ..

قاطعه (بترو) فى حدة واستنكار :

- زميلتك ؟! أما زلت تصرّ على بذل هذا الجهد

الضائع يا سنيور ؟! زميلتك هذه لن تكتب لها النجاة أبدًا ، مهما فعلت من أجلها .. إنها تحتضر يا رجل .. ألا يمكنك ملاحظة هذا ؟! إنك تحمل جثة تقريبًا .

أجابه (أدهم) فى غضب صارم :

- فليكن يا رجل ، ولكننى مصرّ على الاستمرار فى حمل هذه الجثة ، ما دام فى جسدها عرق ينبض .

قال (بترو) فى عصبية :

- وإلى متى سيستمر هذا العرق فى النبض ؟

أجابه (أدهم) فى حدة :

- إلى أن يشاء الله (سبحانه وتعالى) .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى أزاح أحد رجال (أندروفيتش) صخرة صغيرة ، صنع غيابها فجوة ، تسلّل عبرها بصيص من الضوء ، جعل (بترو) يحبس أنفاسه ، وهو يقول :

- رباه .. لقد صنعوا مدخلاً للكهف يا سنيور .

التقطت أذنا (أدهم) جزءًا من حديث (أندروفيتش) مع رجاله ، فقال فى حزم :

- هيا يا رجل .. دعنا نتسلّق هذا الممر .. أسرع .

قالها ، وبدأ يتسلَّق الممر بالفعل ، وهو يحمل (جيهان) على كتفه ، وتصاعدت من جراحه وضلعه المكسور آلام مبرحة ، كادت تفقده الوعى ، لولا إرادته الفولاذية ، التى دفعته إلى أعلى أكثر وأكثر ، فى حين لحق به (بترو) ، وهو يلهث من فرط الانفعال ، ويقول فى هلع :

- هل سيلحقون بنا يا سنيور ؟! هل سيحَاولون الـ ...

قبل أن يتمَّ عبارته ، سمع الاثنان صوت ارتطام القنبلة بجدار الكهف ..

ثم دوى الانفجار ..

انفجار قوى عنيف ، انطلقت معه نيران رهيبة ، غمرت الكهف كله ، ولفحت ظهر (بترو) ، الذى أطلق صرخة ألم رهيبة ، ضاعت مع موجة التضاغط ، التى أطاحت بكل الصخور الصغيرة ، عند مدخل الكهف ، ودفعت جسد (بترو) الضخم أمامها ، عبر الممر شبه الرأسى ، ليرتطم بـ (أدهم) ، ويدفعه مع (جيهان) ثلاثة أمتار كاملة إلى أعلى ..

ثم انبعثت أتربة كثيفة ، لتغمر المكان كله ..

وفى قوة وألم ، سعل (بترو) ، هاتفًا :

- لقد متنا .. متنا .

أجابه (أدهم) ، وهو يسعل بدوره ، ويمزِّق جزءًا آخر من قميصه ، ليحمى به أنف وفم (جيهان) من الغبار الكثيف :

- كلاًّ يا رجل .. الموت لم ينتزعنا بعد من عالم الأحياء ، فالموتى لا يشعرون بتلك الآلام الرهيبة ، التى نشعر بها .

وضع (بترو) يده على أنفه ، وهو يقول فى رعب :

- لا تتحدَّث عن الآلام يا سنيور ، فبالنسبة لى ، لم أشعر فى حياتى كلها بمثل هذه الآلام .. لقد احترق ظهرى تقريبًا ، وكل عظمة بجسدى تصرخ معترضة باكية .

راح (أدهم) يدفع جسده إلى أعلى مرة ثانية ، وهو يسعل ، قائلاً :

- ولكننا ما زلنا على قيد الحياة .. وهذا هو المهم .

بذل (بترو) جهده ليتبعه ، وهو يغمغم بصوت كالبكاء :



راح (أدهم) يدفع جسده إلى أعلى مرة ثانية ..

- السؤال هو : إلى متى ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

- فلنترك الجواب للخالق (عزَّ وجلّ) يا رجل .

صمت (بترو) لحظات ، ثم غمغم :

- صدقت ..

واصلوا صعودهم فى بطء ، وراحت أنفاسهم تُفصح عن مدى ما يعانونه من ألم ، وما يبذلونه من جهد ، و ..

وفجأة ، هتف (أدهم) :

- أعتقد أننا وصلنا إلى منطقة جديدة .

هتف (بترو) فى لهفة :

- حقًا !!

وضاعف من سرعة تسلّقه ، وسط ظلام دامس رهيب ، حتى شعر بيده تستقر على أرضية مسطحة ، فقال :

- رباه !.. أنت على حق يا سنيور .. يبدو أنه كهف آخر .

قالها ، وهو يرفع جسده إلى ذلك المكان المنبسط ، فى حين أشعل (أدهم) أحد أعواد الثقاب المتبقية ،

ليبعث شيئًا من الضوء فى المكان ..

ومع الضوء المنبعث ، اتسعت عينا (بترو) فى ارتياع ، ثم انطلقت من حلقه صرخة رعب ..

فقد كان ما رآه داخل ذلك الكهف الجديد مخيفًا .. للغاية ..

* * *

عندما دوى الانفجار فى الكهف ، لم يقتصر تأثيره على داخله فحسب ، وإنما امتدّ إلى خارجه أيضًا ..

وبصورة عنيفة ..

فقد اندفعت النيران القوية ، مع موجة التضاغط العنيفة ، نحو الصخور التى تسدّ مدخل الكهف ، وأطاحت بها بدوى قوى ، فى وجه رجال (أندروفيتش) ..

وربما كان هذا ما أنقذ حياة (أدهم) ورفيقيه ..

فمع تفريغ الضغط عبر المدخل ، قلّ تأثيره على أجسادهم ، داخل الممر الرأسى ، وانكمش لسان النيران ، فلم يلتهمهم عن آخرهم ..

أما فى الخارج ، فقد قلب الانفجار الموقف رأسًا على عقب ..

صحيح أن رجل المخابرات الروسى السابق قد انبطح أرضًا ، عقب إطلاق القنبلة ، فتفادى التأثير الخارجى العنيف لها ، إلا أن رجاله كلهم ، فيما عدا (كوادروس) و (بندريو) ، قد لقوا مصرعهم ، عندما ارتطمت بهم الصخور ، بكل عنف الانفجار ..

وعندما نهض الثلاثة ، كانت مسدسات ومدافع المفتش (باندرياس) ورجاله مصوَّبة إليهم ، وهذا الأخير يقول فى صرامة :

- انتهى القتال أيها السادة .. ألقوا أسلحتكم ، وارفعوا أيديكم فوق رءوسكم .

أجابه (أندروفيتش) فى صرامة :

- حذار يا رجل الشرطة .. أنت لا تعرف إلى من تتحدَّث .

قال (باندرياس) فى سخرية :

- إلى رجل خرق قانوننا ، وتصوَّر أنه يستطيع العبث بأمننا وأرضنا ، وفعل ما يشاء بهما .. أليس كذلك ؟!

أجابه (أندروفيتش) :

- خطأ أيها المتحذلق .. إننى صديق شخصى

لرئيس الشرطة هنا ، ولى صلات قوية بالحاكم ، ورجال الـ ..

قاطعه (باندرياس) فى غضب :

ـ هل تهددنى ؟!

انعقد حاجبا (أندروفيتش) ، وهو يجيب :

ـ يمكنك اعتبارى كذلك .

رمقه (باندرياس) بنظرة غاضبة ، قبل أن يقول :

ـ فليكن .. سأضيف إلى التهم الموجَّهة إليك ، تهمة تهديد رجل أمن ، فى أثناء مزاولته لعمله .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ظهرت تلك الهليوكوبتر بغتة ، من خلف الجدار الصخرى للممر ..

هليوكوبتر صغيرة ، من طراز يتسع لأربعة أشخاص فحسب ، برزت فجأة ، وهبطت نحوهم فى سرعة ، فتعلَّقت بها أبصارهم جميعًا ، وتمتم (باندرياس) فى قلق :

ـ عجبًا !.. هذه الهليوكوبتر ليست ..

ثم بتر عبارته بغتة ، صائحًا برجاله :

ـ احتموا بأى شىء ..

ومع آخر كلماته ، أو قبل أن يبلغ آخرها فعليًا ، انطلقت الرصاصات من مدفع آلى صغير ، مثبت فى جسم الهليوكوبتر ..

رصاصات اتجهت كلها نحو رجال الشرطة ، الذين انطلقوا يعدون فى كل مكان ، فى محاولة للنجاة ، فيما عدا (باندرياس) ، الذى رفع مسدسه نحو الهليوكوبتر ، وراح يطلق النار ، فانقضت عليه الهليوكوبتر مباشرة ، وأطلقت نحوه رصاصاتها ، لتطيح به فى عنف ، وتنتزعه من مكانه ، ثم تضرب به الجدار الصخرى ، قبل أن يسقط على أرضية الممر ، وتتدفَّق الدماء منه فى غزارة ..

أما (أندروفيتش) ورجاله ، فقد تراجعوا فى البداية بحركة عنيفة ، ثم لم يلبثوا أن انتبهوا إلى أن الهليوكوبتر تهاجم رجال الشرطة وحدهم ، فانعقد حاجبا (أندروفيتش) فى توتر ، وهو يغمغم :

ـ من قائد هذه الهليوكوبتر بالضبط ؟! ملاكنا الحارس ؟!

ولم يطل تساؤله كثيرًا ، فما إن انتهت الهليوكوبتر

من رجال الشرطة ، حتى هبطت على مقربة منهم ، وبرز منها شاب أسمر ، لوَّح بيده ، قائلاً :

- كيف حالك أيها الرفيق .. هيا .. لا داعى لأن تقبِّل يدىَّ شاكرًا .. سأكتفى بكلمة امتنان بسيطة .

ازداد انعقاد حاجبى (أندروفيتش) فى شدة ، فى حين تهللت أسارير (كوادروس) ، وهو يهتف فى سعادة :

- (لاماس) !! إنه (لاماس) .. لقد نجونا .

قالها ، واندفع مع زميله إلى الهليوكوبتر ، فى حين سار (أندروفيتش) نحوها فى رصانة ، جعلت (لاماس) يقول فى سخرية :

- لا داعى للحذلقة أيها الرفيق ، فالفريق الذى أبدناه من رجال الشرطة ، هو طليعتهم فحسب ، إذ إننى رصدت عشرات منهم يتجهون إلى هنا ، فى أثناء قدومى بالهليوكوبتر ، ولو واصلت السير بهذا الوقار، سيلحقون بنا حتمًا ، قبل أن نقلع .

دلف (أندروفيتش) إلى الهليوكوبتر ، وهو يسأله بلهجته الباردة ، التى أخفت الكثير من غضبه وتوتره :

- كيف أتيت إلى هنا ؟!

أقلع (لاماس) بالهليوكوبتر ، وهو يجيب :

- إنها السنيورا .. لقد طلبت منى أن أهرع إليك ؛ لإنقاذك من أى مأزق تقع فيه ، فقد كانت تخشى أن تفشل فى القضاء على خصمها اللدود (أدهم صبرى) .

كظم (أندروفيتش) غيظه ، والهليوكوبتر تنطلق بهم مبتعدة ، وقال فى لهجة صارمة قاسية :

- لقد انتهى أمر (أدهم صبرى) .

هتف (لاماس) :

- حقًا :

كان الضيق والحسد يتقاطران من كل حرف من حروف الكلمة ، وكأنما يحنقه أن ينهى الروسى العمل ، قبل أن يبدأ هو عمله ، مما جعل (أندروفيتش) يضيف شامتًا :

- أنا (يورى أندروفيتش) قضيت على (أدهم صبرى) .. أنا حطمت الأسطورة إلى الأبد .

انعقد حاجبا (لاماس) فى ضيق ، وواصل الابتعاد

بالهليوكوبتر عن ممر (بيليجرو) فى حين حاول (أندروفيتش) أن يسترخى فى مقعده ، وهو يتمتم :

- نعم .. أنا قضيت على (أدهم صبرى) .

وعلى الرغم من الثقة ، التى نطق بها الكلمة ، ومن أن كل الظروف كانت توحى بأنه قد حقق انتصارًا فعليًا ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقه كان يشعر بأن المعركة لم تنته ..

بعد ..

* * *

اتسعت عينا (بترو) فى رعب هائل ، وهو يحدق فى تلك الأشياء ، داخل الكهف الجديد ، قبل أن يهتف بصوت مختنق :

- إنها .. إنها مقبرة .

كانت حولهم بالفعل عشرات من جثث الموتى ، تم تجفيفها أو تحنيطها بوسيلة بدائية ، ووضعت مستندة إلى الجدران فى وضع القرفصاء ، وقد رُبطت سيقانها إلى صدورها بأحبال بدائية الصنع ، وأحيطت رءوسها بتيجان من الريش ، وإلى جوارها توجد بعض الأوانى

المزركشة ، ذات الفوهات الواسعة ..

وغمغم (أدهم) :

- نعم .. من الواضح أنها مقبرة بدائية ، تخص بعض الشعوب ، التى عاشت فى المنطقة قديمًا .

انطفأ عود الثقاب ، عند نهاية حديثه ، فأطلق (بترو) شهقة قوية ، وهتف وهو يرتجف بشدة :

- اشعل عودًا آخر يا سنيور .. أسرع بالله عليك .

أشعل (أدهم) عود الثقاب الجديد ، وهو يقول :

- لم يتبق لنا سوى ستة أعواد يا رجل .. حاول أن تتماسك ، وانفض عنك خوفك من الظلام .

ارتجف صوت الزنجى أكثر ، وهو يقول :

- ولكن .. ولكننا وسط جثث الموتى .

أجابه (أدهم) فى صرامة :

- إنهم أكثر أمنًا من الأحياء ، فهم لن يهاجموك أو يحاولوا قتلك على الأقل .

أدار (بترو) عينيه فى جثث الموتى ، متمتمًا فى رعب :

- من أدراك ؟!

تجاهله (أدهم) هذه المرة ، وهو يدير عينيه فى المكان ، قائلاً :

ـ المهم أن وجود الجثث هنا يعنى أنه هناك وسيلة لإدخالها .. فتحة ما ، أو ممر يقود إلى هنا .

وألقى عود الثقاب ، ليشعل آخر ، ويتابع :

ـ انظر إلى ترتيب وضع الجثث ، وسيتضح لك أن المدخل لابد وأن يكون حتمًا فى هذه البقعة ، التى تخلو منها .

قالها ، وهو يتجه نحو المكان الذى أشار إليه مباشرة ، بعد أن أرقد (جيهان) أرضًا ، وراح يتحسَّس الصخور ، قبل أن يقول فى لهفة :

ـ رباه !.. كنت على حق .. ها هو ذا .

اندفع (بترو) نحوه ، هاتفًا :

ـ حقًا ؟!

كان يندفع نحو (أدهم) ، عندما اتسعت عيناه فجأة فى ذعر ، وأطلق شهقة قوية ، ثم هوى جسمه بغتة إلى أسفل ، وهو يطلق صرخة رعب هائلة ..

وبوثبة مدهشة ، بلغ (أدهم) موضعه ، والتقط

يده ، قبل أن يهوى داخل حفرة عميقة وسط المقبرة .

وفى نفس اللحظة ، التى أمسك (أدهم) فيها يده ، انطفأ عود الثقاب ، وعاد الظلام يسود المكان كله ..

وصرخ (بترو) فى رعب :

ـ لا فائدة .. سأموت يا سنيور .. سأموت .

كان الزنجى ضخمًا ثقيلاً ، حتى إن جسده راح يجذب (أدهم) إلى الحفرة ، وهذا الأخير يقول فى توتر :

ـ تشبث بأى شىء يا رجل .. ادفع قدميك فى جدار الفجوة ، ولكن لا تستسلم للسقوط .

ردَّد (بترو) فى انهيار :

ـ لا فائدة يا سنيور .. لا فائدة .

كان جسد (أدهم) ينزلق أكثر وأكثر نحو الفجوة ، مع ثقل وزن الزنجى ، وصرخ ضلعه المكسور بآلام رهيبة ، إلا أنه لم يفلت يد الرجل ، وإنما راح يهتف به :

ـ قاوم يا (بترو) .. قاوم يا رجل .

ولكن الزنجى كان قد انهار تمامًا ..

الخوف جعله يستسلم للموت ، وكأنما يجد فيه الراحة من هذا العذاب المتصل ..

وفى مرارة ، تمتم :

- اتركنى يا سنيور .. اتركنى .

قالها ، وجسده يجذب (أدهم) أكثر وأكثر إلى الحفرة العميقة ، على نحو بدا معه أنه صادق تمامًا فيما قاله ..

لا فائدة ..

لقد أصبح السقوط حتميًا ..

ولم يعد هناك أمل فى النجاة ..

أدنى أمل .

* * *



١١ - السقوط ..

لهث (كاندى) فى شدة ، وهو يجذب جثة الكولونيل (ألكسندر) ، إلى الشرفة الخلفية لمنزل هذا الأخير ، وقال فى عصبية :

- أعتقد أن ما نفعله الآن غاية فى الحماقة يا (سواتر) .. لقد قتلنا أحد ضباط الجيش الكبار ، وبدلاً من أن نتخلّص من جثته ، فى مكان معزول ، نجازف بإعادتها إلى منزله ، فى وضح النهار ..

ابتسم (سواتر) فى سخرية ، وراح يعالج رتاج الشرفة الخلفية بخبرة لص سابق ، وهو يقول :

- أفضل شىء فى الدنيا ، أن تفعل كل ما تريد فعله فى وضح النهار .. لا أحد يشكّ فى أمرك ، فى تلك الساعة ، ولن يتصوّر أحد أنك تقوم بعمل مخالف للقانون ، بهذه الجرأة وهذا الوضوح ، ثم إننا قد تسلّلنا إلى المنزل من الخلف ، ولن يلمحنا أحد من هذه الزاوية .

صدرت تكة خافتة من الرتاج ، فاتسعت ابتسامته

فى فخر ، ودفع الباب بيده ، ثم دلف إلى المنزل ، قائلاً :

- هيا .. أحضر الكولونيل .

لهث (كاندى) مرة أخرى ، وهو يجذب الجثة إلى الداخل ، ولم يكد يصل إلى الردهة ، حتى ألقاها أرضًا ، وهو يقول فى حدة :

- لماذا أحمل كل شىء وحدى دائمًا .

هزّ (سواتر) كتفيه بلا مبالاة ، وقال :

- هذا أمر طبيعى ، فالأذكى يفكّر ، والأقل يكتفى بالتنفيذ .

تمتم (كاندى) :

- حقًا ؟!

ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه ، قائلاً فى حنق :

- ما الذى يعنيه قولك هذا ؟!.. هه .. ما الذى يعنيه ؟

ابتسم (سواتر) فى سخرية ، مغمغمًا :

- لا عليك يا رجل .. لا ترهق عقلك البسيط فى التفكير .

قالها ، وجذب طرف قفازه المطاطى ، مكملاً :

- والآن ، دعنا نقم بعملنا هنا .

راحا يفتشان المنزل فى دقة واهتمام ، و (كاندى) يسأله :

- ما الذى نبحث عنه بالضبط ؟!

أجابه (سواتر) :

- أى شىء يمكن أن يقودنا ، لتلك التى يطلق عليها اسم السنيورا .. أى شىء .. رقم هاتف .. عنوان .. بطاقة بريدية ..

سأله (كاندى) فى حيرة :

- ولماذا ؟!

التفت إليه (سواتر) ، قائلاً فى سخرية :

- ماذا دهاك يا رجل ؟! أليست واحدة من عملائنا ؟! إننا لم نعتد عدم الوفاء بالتزاماتنا .. أليس كذلك ؟!

بدت على (كاندى) حيرة أكثر ، ولكنه غمغم :

- بالتأكيد يا (سواتر) .. بالتأكيد .

كان سيكتفى فعليًا بهذا القول ، إلا أن عقله عجز - كالمعتاد - عن استيعاب الموقف كله ، فاعتدل ، قائلاً :

- هل تعنى أننا سنصنع إحدى نسخ مشروع (السوبرمان) هذا من أجلها ؟!

قلب (سواتر) كفيه ، قائلاً :

- بالتأكيد يا رجل .. إنها صاحبة الفكرة .

هتف (كاندى) مستنكرًا :

- مقابل سبعة ملايين فحسب .

ارتسمت على شفتى (سواتر) ابتسامة خبيثة ، وهو يقول :

- التعامل مع الكبار يستحق التضحية يا رجل .

ثم اعتدل ، مستطردًا :

- ولكن من الواضح أننا لن نعثر على أى شىء خاص بها هنا .

غمغم (كاندى) :

- لو أننى فى مكان (ألكسندر) هذا ، لأخفيت كل ما يتعلق بتلك السنيورا ؛ حتى لا يرتبط اسمى باسمها قط .

وافقه (سواتر) بإيماءة من رأسه ، وقال :

- لست أدرى كيف أمكنك التوصل إلى هذا ، ولكنه صحيح تمامًا .. الكولونيل لن يضع أى شىء ، يخص

السنيورا فى متناول الأيدى .

غمغم (كاندى) فى شىء من الارتياح :

- إذن فلن يمكننا الاتصال بها أبدًا .. أليس كذلك ؟!

مط (سواتر) شفتيه فى ضيق ، قائلاً :

- بلى للأسف يا رجل .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع رنين الهاتف ، فتألقت عيناه ، واختطف سماعته فى لهفة ، ووضعها على أذنه ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وكاد قلبه يرقص طربًا ، عندما سمع صوتًا أنثويًا ناعمًا ، يقول فى شىء من الحزم :

- صباح الخير يا كولونيل .. أنا السنيورا .

تألقت عيناه أكثر وأكثر ، وهو يجيب :

- صباح الخير يا سنيورا .

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن تقول فى صرامة عصبية :

- من أنت ؟! وأين الكولونيل (ألكسندر) ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة عابثة ، وهو يجيبها :

- الكولونيل (ألكسندر) شعر ببعض التعب ، فقرر أن يخلد إلى الراحة الأبدية ، أما أنا فـ (سواتر) ،

صانع الأسلحة ، الذى يسعى لإنتاج مشروع (السوبرمان) من أجلك ، والذى يتطلّع فى لهفة إلى مقابلتك ، والتحدُّث إليك .

طال صمتها هذه المرة ، قبل أن تقول فى صرامة :

ـ ما الذى تسعى إليه بالضبط يا (سواتر) ؟!

جلس على الأريكة المجاورة للهاتف ، ومدّ قدميه على المنضدة أمامه ، وهو يجيب :

ـ الواقع أننى سئمت التعامل معك ، من خلال شخص متحذلق ، مثل الكولونيل (ألكسندر) ، لذا فقد أزحته عن الطريق ، حتى يمكننا التعامل مباشرة ، وأنا واثق من أن هذا سيحقق فائدة أكثر لكلينا .

كررَت فى صرامة أكثر :

ـ ما الذى تسعى إليه بالضبط ؟!

أشار إلى (كاندى) ، ليحضر علبة بيرة مثلّجة ، وهو يقول فى حزم :

ـ عشرة ملايين يا سنيورا .

قالت فى برود :

ـ مقابل ماذا ؟!

اعتدل ، مجيبًا :

ـ مقابل النسخة التى تطلبينها ، من مشروع (السوبرمان) .

صمتت لفترة أطول بكثير هذه المرة ، قبل أن تسأله :

ـ متى يمكنك تسليمى النسخة المطلوبة ؟!

أدهشته موافقتها السريعة ، وجعلته يندم على الرقم الذى ذكره ، وثبت فى نفسه طمعًا إضافيًا ، فقال فى سرعة :

ـ هذا لا يتضمَّن تكلفة الإنتاج ، التى ستبلغ سبعة ملايين أخرى .

قالت فى صرامة :

ـ سألتك ، متى يمكنك تسليمى النسخة المطلوبة ؟!

ازدرد لعابه ، مجيبًا فى شىء من التوتر ، لم يدر سببه بالتحديد :

ـ بعد ثلاثة أيام فحسب .

قالت فى صرامة أكثر :

ـ يومين فقط يا (سواتر) .

غمغم :

ـ صنع شىء كهذا يحتاج إلى ...

قاطعته فى صرامة مخيفة :

- يومين فقط .

تضاعف توتره ألف مرة ، ووجد نفسه يعيد قدميه إلى الأرض ، ويعتدل فى مجلسه فى احترام ، وهو يجيب فى صوت مضطرب مبحوح :

- كما تأمرين يا سنيورا .

أتاه صوتها مفعمًا بالظفر والثقة ، وهى تقول :

- عظيم .. انتظر اتصالى بعد يومين .

سألها مرتبكًا :

- ألا تحتاجين إلى معرفة رقم هاتفى على الأقل ؟!

ارتجف جسده مع الضحكة الساخرة التى أطلقتها ، قبل أن تقول :

- هل ترغب أنت فى معرفة رقم هاتفك السرى ، أو اسم عشيقتك البولندية الجديدة ؟!

قالتها ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وسرى فى عروقه توتر لا محدود ، فى حين أطلقت هى ضحكة ساخرة طويلة ، قبل أن تنهى المحادثة ، وتتركه يتصبَّب عرقًا ، فى برودة ثلوج القطب الشمالى ..

وفى وكرها ، وسط جبال (بوليفيا) ، مطت

السنيورا شفتيها ، وهى تقول فى سخرية :

- إذن فقد حاولت سرقتى يا كولونيل .. يا لك من وغد حقير !.. من الواضح أنك لم تخبر الرجال بالرقم الحقيقى ، الذى أبلغتك به .. أنت تستحق القتل بالفعل .

ثم التقطت نفسًا عميقًا ، وأضافت بابتسامة كبيرة :

- المهم أننا سنحصل على مشروع (السوبرمان) فى النهاية .

ونهضت من مقعدها ، وأشارت إلى أحد رجالها ، قائلة :

- أريد اجتماعًا هاتفيًا خاصًا .. الآن .

قال الرجل فى حماس :

- بالتأكيد يا سنيورا .

وأسرع أمامها إلى باب صغير ، وفتحه منحنيًا فى احترام ، فظهر خلفه ممر أنيق ، مضاء بأضواء خافتة ، عبرته السنيورا فى خطوات واسعة ، حتى بلغت بابًا آخر ، فأشارت إلى الرجل ، قائلة فى صرامة :

- تأكد من سرية الاجتماع .

انحنى مرة أخرى ، قائلاً :

- بالتأكيد يا سنيورا .. بالتأكيد .

فتحت الباب الثانى ، ودلفت منه إلى حجرة خالية ، إلا من مقعد واحد فى منتصفها ، أشبه بعرش ملكى ، وأسرع الرجل يغلق الباب خلفها فى إحكام ، ثم غادر الممر كله ، وأغلق الباب الآخر ، ووقف يحرسه فى صرامة شديدة ..

أما هى ، فقد اعتلت ذلك العرش ، وضغطت على زر خاص فى مسنده الأيسر ، فارتفعت الجدران الثلاثة المواجهة لها ، وظهرت عليها أربع شاشات كبيرة ، أشبه بشاشات الكمبيوتر ، وابتسمت هى ، مغمغمة :

- لابد أن نطمئن المساهمين على استثماراتهم .

وبضغطة زر أخرى ، أضيئت الشاشات الأربع ، وظهرت عليها وجوه أربعة رجال ، تشفّ ملامحهم عن أنهم لا ينتمون حتمًا إلى جنسية واحدة ، لذا فقد ضغطت السنيورا زرًا خاصًا بالترجمة الفورية ، وهى تتطلّع إليهم بابتسامة كبيرة ، قائلة :

- صباح الخير أيها السادة .. اسمحوا لى بأن أخبركم أن الأحوال قد استقرّت هنا تمامًا ، وأمكننا السيطرة على كل الأمور ، واكتمل فريق العمل ، وبدأ تنفيذ مشروعنا النووى بالفعل .

وتألّقت عيناها ، وهى تضيف فى ثقة :

- وبنجاح تام .

نطقتها وعيناها تتألقان أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

لم يكن أمام (أدهم) سوى حل واحد ، فى ذلك الموقف العسير ، داخل المقبرة البدائية ..

أن يفلت يد (بترو) ، ويتركه يهوى فى الحفرة العميقة ، قبل أن يجذبه إليها ، ويقضيان نحبهما معًا .

ولكنه لم يستطع مجرّد التفكير فى هذا الاحتمال ..

لن يمكنه التخلّى عن الرجل قط ..

مهما كان الثمن ..

لن يسامح نفسه أبدًا ، لو اشترى نجاته بحياة الزنجى المسكين المذعور ..

ولكن المشكلة أن الرجل يرفض التعاون ، مع الانهيار الذى أصابه ..

ولا يوجد أى شىء يمكن التشبث به ..

وآلام جراحه وضلعه المكسورة تتضاعف بسرعة ، وتكاد تقتله من شدتها ..

وبكل غضبه وحنقه ، صرخ (أدهم) :

ـ كف عن تخاذلك السخيف هذا أيها الجندى .. قاتل من أجل حياتك ، ولا تنهر بسرعة كالوغد الأحمق .. هيا أيها الغبى .. تشبث بأى شىء .. هيا .

انتفض جسد (بترو) ، وهتف :

ـ أنا لست غبيًا .. لا تقل إنى كذلك .

صرخ فيه (أدهم) :

ـ بل أنت أغبى شخص رأيته ، فى الدنيا كلها .. الغبى وحده من يترك نفسه يموت ، لمجرَّد أنه يخشى الظلمة .

صرخ (بترو) بدوره :

ـ قلت لك إننى لست غبيًا .. لست غبيًا .

صرخ بالعبارة ، وهو يدفع قدميه فى جدار الفجوة ،

ويرتفع بجسده إلى أعلى ، فجذبه (أدهم) بكل قوته ، وهو يقول :

ـ هذا أفضل .. أفضل كثيرًا .

ألقى (بترو) جسده خارج الفجوة ، واستلقى يلهث فى شدة ، فى حين وضع (أدهم) يده على ضلعه المكسورة ، وهو يتمتم فى ألم :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .

اعتدل (بترو) جالسًا ، وهو يلهث كمن خرج على الفور من سباق عنيف ، وتمتم :

ـ أين الثقاب ؟!

ناوله (أدهم) علبة الثقاب الصغيرة ، فأشعل أحد أعوادها ، وتطلَّع إلى (أدهم) ، على ضوئه الخافت ، متسائلاً :

ـ هل .. هل أصابك مكروه ؟

هزَّ (أدهم) رأسه نفيًا ، وغمغم بابتسامة باهتة :

ـ كلاَّ .. إنها ضلعى المكسورة فحسب .. يبدو أن عمليَّة جذبك خارج الفجوة لم ترق لها .

اتسعت عينا (بترو) فى ارتياع ، وهو يقول :

- ضلعك المكسورة ؟! هل جازفت بنفسك لإنقاذى ، وفى صدرك ضلع مكسورة ؟!

تمتم (أدهم) :

- لا عليك .. لقد اعتدت هذا .

أطلت نظرة تأثُّر وامتنان عميقة ، من عينى (بترو) ، وهو يغمغم :

- لقد جازفت بحياتك من أجلى ، مع ضلع مكسورة .

انطفأ عود الثقاب عند هذا الحد ، فقال (أدهم) .

- مهلاً يا رجل .. احرص على أعواد الثقاب المتبقية ، فلابد أن نجد مخرجًا من هنا .

أشعل (بترو) عودًا آخر ، وهو يسأله :

- ولكنك وجدت المخرج بالفعل .. أليس كذلك ؟!

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، وهو يشير إلى المدخل ، قائلاً :

- ها هو ذا ، ولكنه مسدود بصخرة ضخمة للأسف ، ولن يمكننا زحزحتها من مكانها ، فى حالتنا هذه .

انعقد حاجبا (بترو) لحظة ، ثم ناوله عود الثقاب ، قائلاً فى حزم :

- امسك هذا .

التقط (أدهم) عود الثقاب فى حرص ، ورأى على ضوئه الخافت (بترو) ، وهو يتقدَّم فى حزم نحو الصخرة الضخمة ..

ثم انطفأ عود الثقاب ..

ووسط الظلام ، سمع (أدهم) (بترو) يتأوَّه ، أو يصدر صوتًا مكتومًا ، يشفَّ عن محاولته لرفع الصخرة الضخمة ، فقال ، وهو يشعل عود ثقاب آخر :

- لا تحاول يا رجل .. إنها ..

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدِّق فى ذلك المشهد المذهل أمامه ..

كان (بترو) يحمل بالفعل تلك الصخرة الضخمة ، التى يعجز أربعة رجال أشدَّاء عن زحزحتها ، وقد احتقن وجهه عن آخره ، وهو ينقلها بعيدًا ، ثم يلتفت إلى (أدهم) لاهثًا ، ويقول :

- لقد أزحتها .

تمتم (أدهم) مبهورًا :

- أهنئك .

ثم تحرَّك نحو الفجوة ، التى كشفت عنها الصخرة ، ودقَّ جدارها بقبضته ، قائلاً :

- آه .. هناك حاجز صغير ، وخلفه فراغ كبير .. ترى هل ..

قاطعه (بترو) :

- دعنا نختبر هذا .

وقبل أن ينطق كلمة إضافية ، كانت قبضته تضرب الحاجز بكل قوتها ..

وتحطمه ..

ومع سقوط الحاجز ، اندفع ضوء مبهر ، يغشى أبصارهما تمامًا ، فهتف (أدهم) فى ارتياح :

- أخيرًا .

استغرقت عيونهما ما يقرب من دقيقة كاملة ، قبل أن تعتاد الضوء ، بعد تلك الفترة فى قلب الظلام الدامس ، فاتضحت لهم السماء الملبدة بالغيوم ، التى تخلفت عن العاصفة ، وانتفض جسد (بترو) كله ، من فرط الانفعال ، وتفجرت الدموع من عينيه ، وهو يقول :

- حمدًا لله .. حمدًا لله .. لقد نجونا .

أسرع (أدهم) يحمل (جيهان) ، وهو يقول :

- كنت واثقًا من هذا .. إننى لا أفقد ثقتى فى الله (سبحانه وتعالى) قط .

عبر الفجوة الناشئة ، وهو يحمل (جيهان) ، ولحق بهما (بترو) ، الذى لم يكد يجد نفسه خارج الكهف ، حتى راح يقبّل الأرض فى لهفة ، مكررًا :

- حمدًا لله .. حمدًا لله ..

أما (أدهم) ، فقد أرقد (جيهان) على الصخور العريضة فى رفق ، وتحسس عنقها ومعصمها ، وهو يقول :

- رباه !.. لقد انخفض نبضها بشدة ، حتى إننى أشعر به فى صعوبة بالغة .. إنها تحتضر .. لابد أن نجد وسيلة لإسعافها ، قبل أن ..

بتر عبارته ، وهو يحدق فى وجه (بترو) ، الذى اتسعت عيناه فى رعب هائل ، وهو ينظر إلى شىء ما خلف ظهره ..

وبسرعة ، التفت (أدهم) إلى حيث ينظر (بترو) ، ثم انعقد حاجباه فى شدة ..

لقد كانت هناك عشرة رماح مصوبة إلى صدره ،

وخلفها عشرة من المقاتلين البدائيين ، الذين انطلت وجوههم بطلاء الحرب ..

إنهم سكان المنطقة الأصليون ، الذين لا يحملون للدخلاء والغرباء سوى مصير واحد محتوم ..

الموت ..

وبلا رحمة ..

* * *

[انتهى الجزء الثانى بحمد الله]

ويليه الجزء الثالث

(بلا رحمة)